
روايات مصرية للجيب
46
ما وراء الطبيعة
أسطورة طفل آخر
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

لن أستطيع مواصلة النوم ..

لو لم يهاجمنى ذلك الكابوس ، لاستطعت أن أنعم بخمس ساعات كاملة .. وهى بالنسبة للشيوخ كافية للغاية .. إن الشيوخ ـ كل الشيوخ ـ يتمتعون بنوع خاص جداً من الأرق يسمونه (الاستيقاظ قبل الأوان) ، وهم عامة ينامون أقل من الشباب بكثير ..

أما الآن فالفراش يبدو لى أرضًا معادية ، ولم يعد فراشى ، وقد تجعدت الملاءة وانثنت الوسادة .. ثم إن ذراعى وساقى قد نسيت على ما يبدو الوضع المريح الذى بدأت به النوم ..

لن أستطيع النوم ثانية ..

لذا أعقد رباط الروب الصوفى حول خصرى ، وأتجه إلى الصالة لأجلس هناك .. تعالوا معى .. هل ترغبون فى بعض الشيكولاتة الساخنة أو الشاى ؟ إن الدار

داركم ، لكن لا تعبثوا بشيء ولا تحطموا المزهريات أو الأكواب من فضلكم .. إن فى هذا عناء - أى عناء - بالنسبة لشيخ مريض يعيش وحيدًا ..

عم أحكى لكم الآن ؟

سأحكى لكم عن التوءمتين اللتين كانتا تشعران بالشيء ذاته كلما .... ماذا ؟ حكيتها ؟ غريب هذا ! إن ذاكرة المرء لم تعد مما يطمئن السامعين ..

ليكن .. هل أحكى قصة الطوطم ؟ إنها مخيفة بما يكفى ، لكنى خارج من كابوس ولا أرغب لحظة فى أن أحكى كابوسًا آخر .. ليكن .. ثمة قصة لا بأس بها أبدًا - أو هذا ما أعتقده - فيها بعض الغرابة والرعب مع بعض التهكم الذى ستفهمون سببه حالاً ..

هل أحكيها ؟ حسن .. قربوا منى رءوسكم وآذانكم وأصغوا لما أقول ..

* * *

١- من البداية ..

سأحاول أن أتقصى القصة من بدايتها ، ولا أثب إلى أية استنتاجات لا ترتاحون لها .. إن الطريقة المثلى هى أن تستنتجوا أنتم كل شيء بأنفسكم ..

أكثركم يعرف القصة الكاملة ، لكنى أستسمحكم فى إعادة سردها كما هى ، لأن البعض لا يعرف حرفًا عما أتكلم عنه ..

أنتم تعرفون (هناء) .. من هى؟ (هناء عبد الجليل) قريبتى طبعًا.. هل توجد فى العالم (هناء) أخرى ؟ إنها تقيم فى إحدى ضواحى القاهرة .. وهى - كما لابد أنكم تعرفون - معلمة ابتدائى ، فى الأربعين من عمرها .. تعرفون كذلك مشكلاتها التى لا تنتهى مع الإنجاب والتبويض .. إلخ .. لقد ظلت تتردد على عيادات أطباء النساء عشرين عامًا قبل وبعد إنجابها لـ (رامى) .. فى البداية لتنجب طفلها الأول .. وفى النهاية كى تتمكن

من إنجاب طفل ثان ، بعدما أوشك مبيضاها على التقاعد ..

إن (هناء) مسكينة كما تعلمون .. لكن المشكلة هى أنها مملة إلى حد ما ، ولا تكف عن إمطارى بالأسئلة عن احتمالات الإنجاب ، وعن الآثار الجانبية لترسانة العقاقير التى تتعاطاها والتى - بحكم الفترة الزمنية - لم تكن بهذه الكفاءة المرجوة .. فأقول لها فى صبر :

- « أتمنى لو أساعدك لكنى طبيب باطنى .. أقسم بالله العظيم إننى طبيب باطنى .. مختص بأمراض الدم لا أكثر ولا أقل .. »

فتقول بطريقتها المتبسطة :

- « لكنك بالتأكيد تفهم فى هذه الأشياء .. أليس كذلك ؟ »

وهو منطق شائع يفترض أن مهندس الكمبيوتر لابد - بالضرورة - أن يكون قادرًا على بناء مجمع سكنى ..

مادام (يفهم فى هذه الأشياء) .. هذا وإلا كان حمارًا صرفت عليه الدولة مالًا لاطائل من ورائه ..

زوج (هناء) مهندس يعمل فى الصحراء فى شىء ما .. وهو لايعود إلا مرة فى الشهر حيث يمكث ثلاثة أيام ثم يسافر ثانية ، ويبدو أن راتبه لابأس به أبدًا ، فهو يكفل لها حياة لابأس بها بمقاييس تلك الأيام .. وقد استطاع أن يبتاع فيلا صغيرة فى تلك الضاحية ، تعيش فيها مع (رامى) ، ولحسن الحظ أن انشغاله الدائم كان يحول بينه وأن يكون ودودًا .. وأنا بطبعى أمقت هؤلاء الودودين الذين لا يكفون عن زيارتك ويطالبونك بالمثل ..

(رامى) الابن فى التاسعة من العمر الآن ، وهو شىء ملائكى رقيق .. وكان الأجدر به أن يكون فتاة .. لقد اجتمعت ملامحه البريئة المرسومة بدقة ، مع طباعه الخجول التى شكلها التعامل مع الأم لا الأب ، لتجعل منه فتاة ذات خفر وحياء تلبس ثياب الأولاد .. ويمكن بسهولة أن تفهم أن هذا الصغير تربية امرأة ..

امرأة تخاف عليه كثيرًا وتفرط فى تدليله وتمنحه كل مايريد ، وتخوفه من العالم الخارجى .. (ابن أمه) هو المصطلح الشائع .. وأنا لا أحبه كثيرًا لأنه يذكرنى بالكلب الجالس أمام الجراموفون المرسوم على أسطوانات (صوت سيده) الشهيرة ..

باختصار كنت أعرف أن تربية هذا الصغير ليست قويمة ، وأن مستقبله مظلم ملىء بالعقد النفسية ، مالم ترزق الأم بطفل ثان ، يبدد بعض اهتمامها المرضى بصغيرها الوحيد هذا ..

الآن يعرف من لايعرف مقدار ما يعرف من يعرف ..

يمكننا البدء إذن ..

* * *

كان ذلك اليوم من شهر مارس هو اليوم الذى حدثت فيه تلك المعجزة .. لقد سمحت له الأم بالخروج مع اثنين من أبناء الجيران هما (أكرم) و(سامح) ..

وهما شيطانان صغيران خبرا كل شىء فى الحياة وعمرهما ثمانية أعوام ، ويملكان خبرة أى زعيم عصابة من مطاريد الجبل حين يصل لسن الخمسين ..

كان يومًا من شهر مارس .. بالتحديد فى الساعة الرابعة عصرًا ، والشمس تغمر الشارع بذلك الضوء الواهن الذى أرهقه العمل طيلة النهار ..

كانت الجولة تتضمن ركوب الدراجات .. وكانت لدى الصبى دراجة صغيرة لم يستعملها قط خارج حدود الفيلا ، لذا سمحت له الأم باستعمالها مع صديقيه الجديدين ، وإن حرصت على أن ترسم لثلاثتهم مسار الرحلة .. هذا الشارع الهادئ الخالى من السيارات .. حتى تصلوا إلى المنعطف الأيمن .. ثم تمضون فيه لتمشوا عبر المرج .. بعدها تقومون بدورة مع عقارب الساعة لتعودوا لنفس النقطة .. والويل لكم كل الويل لو خرجتم عن هذا المسار ، أو مشيتم فى شارع به سيارات ، أو تكلمتم مع الغرباء .. أو ... أو ....

ـ « عندها سأشد آذانكم هكذا .. »

ـ « أى ى ى ى ى ى ى ى ى ى ى ى ! »

وبكل أعصابها المتوترة الموشكة على الانهيـار ، اعتصرت أذن (سامح) حتى كادت تنتزعها .. إن الصبى لم يفعل شيئًا لكنها تؤمن بمنطق (جحا) العبقرى ؛ إذ صفع ابنه لينذره من إضاعة كيس النقود .. وكانت حجته فى ذلك أنه لن يجنى شيئًا من صفع الطفل بعد إضاعة الكيس .. أما الآن فإن الصفعة ستؤلمه إلى حد أنه سيبذل جهده كى يتلافى صفعة أخرى ..

وكانت ككل النسوة العصابيات تتوقع كارثة .. بالتأكيد ستحدث كارثة .. لكنها لا تستطيع منع الصبى من هـذه النزهة التى وعدته بها ، والحاجة إلى أن يعيش حياة طبيعية مع أقرانه .. صحيح أنها ترى بعين اليقين جثته الممدة فى الطريق وحولها بركة دم ، وعشرات المارة يمزقون ما معهم من ورق صحف لتغطية وحيدها ، لكن هنـاك احتمالاً لا بأس به أن ينجـو الصبى لأن هذه أول مرة .. وهو لا يعرف أنها آخر مرة كما تنتوى هى ..

انطلقت الدراجات بالأطفال الثلاثة ، وبعد ثوان تواروا عن عينيها ، ودخلت هى الفيلا وهى تجتر خواطرها السوداء المرعبة .. وأقسمت إن هذه آخـر مرة فى حياتها تقدم فيها على حماقة كهذه ..

وبالطبع نعرف جميعًا أن ساعتين مرتا دون أن يعود الصـبية ، والشـك الـذى كـان يمزقهـا صـار يقينًـا مؤلمًا : لقد حدثت كارثة .. بالتأكيد حدثت كارثـة .. إنها الآن لا تحتاج إلى أى جهد تخيل كى ترى الجثـة الملوثة بالدماء والجريدة .. فجأة امتلكت القدرة على اختراق الجدران ببصرها لترى المأساة ..

وفى النهاية وضعت الكنزة بشكل ما على كتفيها ، وأمسكت كيس النقود وغادرت الدار عازمة على أن تقطـع الطريق فـى ذات المسار الـذى قطعـه القـردة الصغار .. هذا بالطبع لو كانوا قد فعلوا كما أمرتهم ..

لكنها ـ كما تعرفون جميعًا ـ لم تبتعد كثيرًا لأنهـا وجدت الصبيين الوغدين (سامح) و(أكرم) قادمين من بعيد ، وهما يقودان الدراجتين بسرعـة النيازك ،

وعرفت من وجهيهما الممتقعين أن أسوأ كوابيسها قد تحقق ..

* * *

ـ « سأسمع القصة للمرة الثالثة وبهدوء هذه المرة .. »

قال (أكرم) لاهثًا وهو يرتجف :

ـ « أقول لك يا (تانت) إن (رامى) لم يلحق بنا .. لقد دخلنا فيلا (أبو العلا) .. و..... »

وأنتم تعرفون فيلا (أبو العلا) بالطبع وتعرفون ما يقال عنها لهذا لن أحكى أكثر ..

أمسكت (هناء) ـ قريبتى الباسلة ـ بالصبى من مجمع قميصه ، وصاحت فى غل :

ـ « ولماذا فعلتم يا حمقى ؟ »

ـ « ك .... كنا نريد أن نجمع بعض ورق التوت من الشجرة التى هناك .. إن لدىّ بعض دود القز ؛ فهذا هو الموسم كما تعلمين يا (تانت) .. »

ـ « (تانت) ؟؟ هل تركتم فيها مكانًا لـ (تانت) ؟ »

وأطلقت فيضًا من البذاءات التى لا أستطيع ذكرها طبعًا ، لكن بوسعك تخيلها .. إن سمعة فيلا (أبو العلا) سيئة طبعًا فى هذه الضاحية ، ولا أحد يدنو منها أبدًا .. يكفى أن هذه الفيلا الفسيحة الفاخرة لاتجد من يشتريها بسعر هو ملاليم .. والنتيجة هى أنها تحولت إلى نوع من الخرائب الإغريقية .. إنها الحلقة المفرغة المعروفة : سمعة مريبة تحيط بالعقار ، فيحجم عنه الناس ويصير مهجورًا ، من ثم تزداد سمعته المريبة أكثر ..

قال (سامح) وهو يرتجف :

ـ « كنا فى الحديقة ثم .. ثم .... رأينا من يحاول اللحاق بنا .. لا أدرى يا (تانت) .. لكنه كان مخيفًا .. شكله آدمى لكنه .... لا أدرى ما الذى أثار هلعنا .. لكننا بادرنا بالفرار .. »

ـ « و(رامى) لم يلحق بكما ؟ »

- « نـ .. نعم .. إنه بطىء فى قيادة الدراجة ، وربما اختل توازنه أو شىء من هذا .. »

كان هذا كافيًا لـ (هناء) التى لم تنتظر سماع أكثر ، وسرعان ما تركت الغلامين ، وهرعت تثب وثبًا نحو فيلا (أبو العلا) .. لايعلم سوى الله ما يحدث هناك ، لكن هذا اليوم النحس يقول إن عليها أن تسرع ..

* * *

٢ـ بسطويسى والتهاب المرارة وما إلى ذلك ..

يجب أن نقول هنا إن (هناء) ـ بالطبع ـ لم تصدق حرفًا من كلام الغلامين عن الغريب مخيف الشكل .. إنه خيال الصبية طبعًا .. التسلل الخفى والإثم والخوف من المجهول ، كل هذا جعل خيالهما كالفتيل الجاهز للاشتعال .. بالطبع كان فى الفيلا شخص ما .. خفير أو متسلل ، وقد برز لهما فطار عقلاهما شعاعًا .. إن القط المتسلل يكون حزمة من الأعصاب المرهفة ، فلو أنك صحت فيه (بخ) لوثب فى الهواء مترين ..

لكن هذا لا يجعل الأمور أجمل ولا يجعل الحياة أروع .. إن وحيدها الآن فى الفيلا مع متسكع .. يجب أن تلحق به ، والويل كل الويل لو جرؤ الأحمق على إثارة ذعر (رامى) .. إنه لايعرف أية حماقة يقترفها .. إنها لم تمزق حنجرة إنسان بأسنانها قط على ما تذكر ، لكنها تجد الفرصة الآن سانحة للتجريب ..

وها هى ذى الفيلا هناك عند قمة الشارع .. جاثمة كالكابوس فى ضوء شمس العصر الواهنة ..

تدنو (هناء) منها ، وقد بدأ حماسها للقتل يخبو قليلاً .. الحق أن المكان رهيب .. لاينكر هذا إلا مدع .. وقد لعبت الأشجار الكثيفة المتشابكة دور ستار المسرح لهذا الرعب درامي الطابع .. أشجار لن تندهش لو قيل لها إنها من العصر الطباشيرى ، فقط لو أنها سمعت شيئًا عن هذه العصور الجيولوجية .. لقد رأيت هذه الفيلا فيما بعد ، ولم أكن لأندهش لو برز رأس ديناصور من بينها ليخور خوارًا عميقًا يرج الشارع رجًا ..

وقفت عند البوابة الصدئة ونظرت إلى الداخل .. إلى الحديقة التى لم تر أية عناية منذ عشر سنوات حتى تحولت إلى دغل .. وبرغم هذا استطاع الحمقى أن يدخلوها بدراجاتهم .. إن كل الصبية أوغاد .. كلهم يستحق الجلد بالسياط .. ثمة قطة تهرب من هنا لهناك ، وسيارة عتيقة من طراز (تاونس)

تقف وحدها فى الفناء .. سيارة لم يعد فيها إطار واحد ، ولازجاج نافذة ..

لن تجد الصبى .. حتمًا لن تستطيع أن تجده هنا ، فالمكان أعقد من اللازم .. ربما كان عليها أن تستعين بأحد المارة كى ......

وهنا وجدته يخرج من قلب الحديقة قادمًا نحوها ..

* * *

هرعت إليه واحتضنته فى نهم ، ثم أبعدته عنها لتتفحصه جيدًا .. هل أنت بخير ؟ لاجراح ولاخدوش ولاكسور ؟ لاشىء .. من جديد عادت تحتضنه وتلثم كل ما بلغته شفتاها من وجهه ويديه .. كان يمشى والدراجة إلى جانبه ، فأخذته من يده عائدين إلى الدار ، ولم تنس أن ترمى الفيلا الجاثمة كالكابوس بنظرة كراهية حقود .. لماذا لا ينسفون هذه الأماكن الشريرة بالديناميت ؟

وفى الطريق واصلت تأمله .. كان محتفظًا بنفس

الطابع الملائكى على وجهه ، وإن كان وجهه محمراً انفعالا ، وقد تهدلت خصلة شعر سوداء لتغطى عينه اليسرى ، فبدا لها هشًا رقيقًا لم تره من قبل ..

- « هل أنت بخير ؟ هل آذاك هذا المتسلل ؟ »

هز رأسه أن لا .. وقال :

- « لم يكن إلا متسولاً أقام هنا .. وقد فر حين رآنا .. يبدو أننا أفزعناه أكثر مما أفزعنا .. »

أخيرًا ترى معالم الفيلا التى يعيشان فيها .. وكان الغلامان قد فرا الى داريهما .. هذا من حسن حظهما ..

سألته وهى تسمح له بالدخول قبلها :

- « وماذا كنت تفعل كل هذا الوقت بعد ما فر الخنزيران الآخران ؟ »

مد يده فى جيبه وبخجل قال :

- « لا شىء .. أردت أن أجلب لـ (أكرم) بعض ورق التوت .. ما دمنا قد دخلنا » .

ومن جيبه أخرج قبضة مفعمة بالورق الأخضر



وهنا وجدته يخرج من قلب الحديقة قادمًا نحوها ..

المشرشر إياه ، فابتسمت الأم فى رفق وقاومت رغبتها فى أن تبعثر هذا الهراء فى أرجاء الحديقة ..

ـ « هل كل شىء تمام يا هانم ؟ »

كان هذا هو عم (بسطويسى) بواب الفيلا الصعيدى العجوز ، وهو شيخ فان من أقارب زوجها ، لا يفعل شيئًا تقريبًا إلا البقاء حيًا والبصاق .. وكان قد شعر بأن شيئًا ليس على ما يرام يجرى هنا ..

ـ « لا شىء يا (بسطويسى) .. خير .. »

قال فى ذكاء وهو يلف سيجارة من دفتر ورق البافرة الذى يضعه فى عمامته دومًا :

ـ « إن صبية هذه الأيام شياطين .. لابد من يد من حديد للتعامل معهم .. »

ثم تذكر فأضاف :

ـ « ماعدا البك الصغير طبعًا .. »

لم تعلق الأم وإن كانت توافق على كل حرف قاله ..

* * *

كانت هذه المغامرة البسيطة هى بداية قصتنا الحقيقية .. وسأحاول فى الصفحات التالية أن أبرهن أنها لم تكن مغامرة بسيطة إلى هذا الحد ..

فى تلك الليلة أخلد (رامى) إلى النوم ، وهو لم يكن من هؤلاء الأطفال الشياطين الذين ينامون وحدهم .. هؤلاء الأطفال الذين تمسهم العفاريت أو تمتص الوطاويط دمهم ، أو تعض سحالى الورل أصابع أقدامهم .. كان ينام فى فراش أبويه بالطبع بعد عدد لابأس به من القصص المسلية ..

أخيرًا نام ، وراح صدره الصغير يعلو ويهبط تحت الأغطية .. راحت تتأمل وجهه البرىء الرقيق .. لا توجد مشاكل .. بالتأكيد لاتوجد مشاكل .. لكن لماذا تشعر بشعور ما .. شعور ما .. لايمكن وصفه ؟ شىء ما فى وجه صغيرها كان هناك أمس ولم يعد ، أو شىء لم يكن موجودًا وصار موجودًا .. لا تستطيع التحديد بالضبط ، لكنها لم تحب هذا الشعور كثيرًا ..

ضايقها أكثر أن عينيه لم تكونا محكمتى الإغلاق فى أثناء النوم .. ثمة أشخاص كثيرون يعانون من هذا بسبب ضعف خلقى فى عضلة الجفن ، لكن (رامى) بالتأكيد لم يكن منهم ، ولم تستطع أن تحب هذا البياض الأملس للمسطح يرمقها بلا هوادة من بين جفنين يأبيان الإغلاق .. لابد أنه إنهاك اليوم الطويل قد جعله عاجزًا عن بذل جهد بسيط كغلق العينين ..

المهم أنها نهضت وبدأت تستعد للنوم بدورها .. تأكدت من أن الموقد مغلق ، وأن الأضواء مطفأة .. صلت العشاء ومرت على النوافذ التى أصر زوجها على تدعيمها بالحديد .. « لأن هذا العجوز لا يصلح لحراسة جبل .. » .. ثم تهيأت لدخول الفراش حين ..

حين بدأ ذلك الألم الغامض المبهم فى كتفها الأيمن .. ثم بدأ يزحف ببطء ليعتصرها كلها .. ثمة ثقل قاهر تحت ضلوعها اليمنى أسفل الصدر مباشرة .. مع رغبة عارمة فى القىء ..

لم تكن بحاجة إلى طبيب لتعرف أن هذه هى آلام

المرارة .. كانوا قد أخبروها بذلك من زمن ، وما كان يجب أن تلتهم البيض المقلى على العشاء .. لكنه النهم الآدمى الشهير .. « دوام مدامة ، وداوم وطء ، وإدخال الطعام على الطعام » .. هذه هى الأشياء الثلاثة القاتلة كما عرفها الطبيب الأعظم (ابن سينا) .. وهى ما كانت تحفظ هذا البيت لكنها تحفظ شيئًا واحدًا مهمًا فى هذه الساعة : رقم هاتف الأحمق المدعو (رفعت اسماعيل)..

* * *

وبعد ساعة كنت أقف هناك جوارها وهى ممدة على الأريكة ، انتهى من حقنها بدواء مزيل للتقلصات ..

بدا لى أنها تتحسن .. بالتأكيد تتحسن ..ومن يدرى ؟ ربما لم تكن المرارة أصلاً ، لأن نوبات هذه الأخيرة تكون كالأعاصير فى عنفها ، وغالبًا لا تزول بهذه البساطة ..

قالت لى وهى تحاول التنفس :

ـ « سلمت يداك .. لكن ريقى قد جف تمامًا وفمى كقطعة الحطب .. لماذا ؟ »

قلت وأنا أمسح ذراعها بقطعة القطن :

ـ « هذا تأثير السم كما تعلمين .. إن الفيلا الآن تنتظرنى لسرقتها ، مفتوحة كقلب صديق .. »

ضحكت قليلاً حتى آلمها الاهتزاز فتأوهت .. ثم قالت :

ـ « معذرة .. فلم أكن أعرف أحدًا أثق به فى هذه الساعة كما تعلم .. آى .. واضطررت لإيقاظك كى .. »

ـ « مفهوم .. مفهوم .. أنا فى متناول اليد أكثر من اللازم .. »

نظرت إلى السقف وقالت :

ـ « هل ستتكرر هذه النوبة ؟ »

ـ « بالتأكيد وستكون أسوأ .. لماذا تهتمين بهذه الأمور ؟ »

ـ « المشكلة هى .... (رامى) .. »

ونظرت فى قلق إلى غرفة النوم ، حيث كان الصغير يغط فى عمق ، وأردفت :

ـ « المشكلة أننى مقطوعة من شجرة .. لا أقارب لى فى هذه المدينة سواك .. وأبوه غير موجود الآن .. تخيل أن أصاب بنوبة كهذه وتكون أعنف .. ماذا سيفعل الصغير وقتها ؟ »

كلامها على شىء من المنطق دون شك .. والجدير بالذكر هنا أنه لايوجد جيران محددون على بعد مائتى متر من هنا .. لكنى لا أصدق أنها لا تملك حلاً على الإطلاق .. لابد من شخص ما فى مكان ما يعرف كيف يعنى بطفل حتى تشفى أمه .. هناك أحمق واحد بالتأكيد ..

ثم فهمتُ الفخ الذى تقودنى إليه ببراعة ، كما يفهم لاعب الشطرنج فجأة بعد ما التهم عشرات القطع ، أن خصمه ليس معتوهًا وأنه يقوده إلى شرك مميت .. قلت مسرعًا :

ـ « لكنى لا أستطيع العناية به .. أنا بصعوبة أعرف كيف أظل حيًا .. لاتتصورى أن .... »

رفعت سبابتها نحو فمى فى شىء من دلال وقالت :

ـ « لم أطلب هذا ، ولكنى أطلب وعدًا .. »

ثم همستْ فى أذنى :

ـ « لو حدث لى شىء ، ولم يكن لـ (رامى) ملجأ آخر سواك ، عندئذ ستعنى به .. »

هل تنوى الموت ؟ لو حدث هذا لكانت كارثة الكوارث .. كلا .. إن الأب موجود وحىّ والحمد لله .. فى أسوأ الظروف لن يزيد الأمر على بضعة أيام .. ومهمتى إلى حد ما لن تكون معقدة : أمنع هذا القرد الصغير من قتل نفسه ..

ـ « لن يحدث لك شىء .. هذا ما أعدك به الآن .. »

وحملت حقيبتى ، واتجهت إلى الباب ، وقد اطمأننت عليها إلى حد ما ..

* * *

أيام كثيرة تساقطت كقطرات الماء ، من صنبور

الزمن .. واحتشدت فى جدول صغير لتصنع شهرًا ..

عشت حياتى أو لم أعشها .. المهم أننى ابتعدت كثيرًا عن مشاكل (هناء) الصحية والنفسية ، فما أدرى إلا وقد جاءتنى فى مكتبى بالجامعة ذات صباح كئيب ..

وكانت لديها قصة غريبة بعض الشىء ..

* * *



٣ ـ معلمة رحلت ..

بعد عبارات الترحاب المملة سألتها عن الصغير ، فقالت إنه فى المدرسة .. إن العام الدراسى يلفظ أنفاسه ، ويبدو أنهم يريدونه فى المدرسة للمراجعة أو شىء من هذا القبيل .. لقد أرسلته للمدرسة اليوم خصيصًا كى لا يأتى إلى المستشفى معها .. قدمت لها بعض المياه الغازية فتشممت الزجاجة فى تقزز ومسحت فمها ـ الزجاجة ـ بمنديل ورقى عدة مرات ، فهى من الطراز الهستيرى الذى يحسب المستشفى مجموعة من الجراثيم تم تجميدها على شكل جدران .. وبالتأكيد يوجد لدينا صنبور يعبئ بكتريا الطاعون فى زجاجات مغلقة نقدمها للضيوف الحمقى .. لأسباب كهذه لم تحضر (رامى) معها ..

قالت لى وهى تضع زجاجة الطاعون جانبًا :

ـ « دعنا من المجاملات ، فليس هذا هو السبب الذى جئت من أجله وأخذت إجازة من المدرسة .. »

ـ « فلندعنا منها .. »

ـ « أنا قلقة من أجل (رامى) .. »

قلت لها فى ملل وأنا أتأرجح فى مقعدى :

ـ « كل الأطفال فى سنه يسعلون ، ولم يأكلوا شيئًا منذ خمسة أشهر فى أية لحظة ترينهم فيها .. هل لديك شىء آخر يقال على سبيل التجديد ؟ »

ـ « لقد مات الأستاذ (مجدى) .. »

تراجعت للوراء حتى كاد المقعد يسقط وقلت فى جزع :

ـ « مات ؟ كيف ومتى ؟ »

ـ « نعم مات .. ولهذا جئت الآن .. »

ـ « ولكن من هو الأستاذ (مجدى) ؟ »

ـ « إنه معلم فى مدرسة (رامى) .. ظننت هذا مفهومًا .. »

* * *

قالت (هناء) :

ـ « أنت تعرف أن هؤلاء الغلمان ساديون حتى النخـاع ، مولعون بالإيذاء وإحداث الأضرار .. مجرد حيوانات شرسة تمشى مكشرة عن أنيابها ، وهى لا ترحم الضعف أو الوهن .. و(رامى) ضعيف واهن .. إنه لا يعرف شيئاً عن العالم الخارجي ولا يعرف كيف يتعامل معه ، وقد تربى على أرق المشاعر وألطفها .. ليس لـه مكـان فى تلك الغابة القذرة ..

ـ « حتى لا أطيل عليك أقول : إنه تعرض للتحرش به فى المدرسـة .. هناك هذا الصبى البدين الذى يدعـى (هشام) ، والـذى قرر أن هدفـه الوحيد فى الحياة هو التنغيص على ابنى الرقيق .. لقد تشاجرت مع أمـه مرتين من قبل ، وهى امرأة بدينة مزعجة مثله ، وأعتقد أنه لو منحنى أحدهم مدفعاً رشاشاً فإننى أعرف مـاذا سأفعل به بالضبط .. سأجعل العالم مكاناً أجمل بعد خمس دقائق لا أكثر .. »

كانت (هناء) قد بدأت ترتجف غلاً ، وتتدحرج فى المقعد ، وراحت تمزق المنديل الورقى بين أناملهـا ، فقلت لها مهدئاً :

ـ « ما علينا .. أعتقد أن القصـة تحـوى أكثر من حقدك على (هشام) هذا وأمه .. »

قالت وهى تحشد أعصابها :

ـ « نعم .. بالطبع .. »

فالذى حدث هو أن مشادة ما وقعت بين (رامى) و (هشام) دون أن تلاحظ المعلمة ، كانت نتيجتها هى لكمة فى بطن (رامى) دون أن تلاحظ المعلمة ، ثـم تمزيق كراسته دون أن تلاحظ المعلمـة .. وفى اللحظة التالية انفجر (رامـى) غضبًا ووثب لينشـب أنيابـه ومخالبـه فـى (هشام) ، وفـى هـذه المـرة لاحظـت المعلمة ..

ـ « الله .. الله ! لقد صار هذا (سويقة) وليس فصلاً .. »

قالتها المعلمة طبعًا ، ولسبب ما تصر على لفظة (سويقة) للدلالة على الفوضى ..

ثم بدأت المذبحة .. لا أدرى حظ تلاميذ المرحلة الابتدائية اليوم ، لكن ـ فى ذلك الزمن ـ كان الجلد أسلوبًا تربويًا شائعًا فى المدارس .. وقد تلقى (رامى) عددًا من الجلدات على ظهره الصغير ، لكن أسوأ ما فى الأمر هو أن هذا تم أمام (هشام) .. (هشام) المتشفى الذى التمعت عيناه وحشية وتلذذًا .. والذى طبعًا لم يمسسه سوء ..

لم يبك الصغير .. فيما بعد أجمع الجميع على أنه لم يبك .. فقط كانت هناك تلك النظرة فى عينيه وهو يرمق المعلمة بعد انتهاء العقاب .. نظرة طويلة بلا معنى على الإطلاق ، أتبعها بنظرة مماثلة إلى (هشام) البدين ..

وحين عاد إلى الدار أخبر (هناء) بالقصة كلها ، فصممت على أن تواجه المعلمة وتلقنها درسًا

لا بأس به أبدًا .. إن الغد سيشهد مواجهة بين ديناصورين من ديناصورات ما قبل التاريخ .. صراع المردة ..

وبعد الانتهاء من موضوع المعلمة سيكون على (هناء) أن تمزق (هشام) وأمه بلسانها .. هذا لن يجعل الغد شائقًا ، لكنه بالتأكيد يحتاج إلى الاستيقاظ مبكرًا ..

* * *

وفى الغد ذهبت (هناء) إلى المدرسة مع (رامى) هذه المرة ، واتجهت إلى مكتب مشرف المدرسة (الناظر) ، وهو شيخ يصر على أن هناك سببًا واضحًا لتسمية الوزارة بـ (التربية) قبل (التعليم) .. كان الجو فى المكتب متوترًا فوق العادة ، وكان الرجل يضع سماعة الهاتف ، بينما وقفت معلمة أو معلمتان والذهول على وجهيهما ـ لابد أن واحدة من هاتين المسلحتين قد تسببت فى قتل طفل آخر لم يفعل شيئًا ، أو فقأت عينه ..

دخلت (هنـاء) قريبتى الباسلة المكتب ، وقـالت فى حزم أنهـا أم (رامى) وإن هناك كلمتين لابد لها من أن تقولهما أمامـه للمعلمـة .. نظـر لها المشرف للحظة ثم نظر إلى المعلمتين نظرة ذات معنى ، وقال :

ـ « ثقى أنها لن تضايق ابنك ثانية ياسيدتى .. »

ـ « هذا جميل .. ولكن من يضمن لى ؟ »

تعبير غريب ارتسم على وجهه ، وهو يقول :

ـ « هذه المكالمة كانت من زوجها .. إنها لم تصح من النـوم قط .. إن جنازتهـا ستخرج بعـد صـلاة الظهر .. »

وانفجرت معلمـة فـى البكـاء لـدى سـماع هـذه الكلمات ..

ببلاهة وقفت (هناء) تنظر إلـى مـا حولها ، وراح فمها ينفتح ويغلق كما تفعل سمكة الزينة فى الحوض .. غريب هذا .. يا لها من مصادفة ! وبالطبع تبخر حقدها

فى لحظة .. فهى كانت من النوع الرقيق غير الحقود الذى لايستطيع أن يحتفظ بكراهيته لخصم مـات منذ ساعتين ..

ـ « غـ .. غريب هذا .. لم أكن أعرف .. »

قال وهو يشيح ببصره عنهـا وينهض من علـى مكتبه :

ـ « طبعًـا لم تكونى تعرفيـن .. لا أحد يعرف .. والآن لو سمحت وأخذت ابنك معك إلـى الـدار .. لـن تكون هناك دراسة اليوم لأننا جميعًا سنذهب لحضور الجنازة .. »

وقـالت إحدى المعلمتين وهى ترمقهـا بكراهيـة وتتهانف :

ـ « الكل كان يحبها ! رحمها اللّه .. »

شعرت (هناء) ـ ككل المصابيين ـ بتأنيب ضمـير لامبرر له كأنهـا بالفعل تسببت فى مـوت المـرأة ،

وساعدت كلمات المعلمة التى تحمل معنى اللوم فى جعل حالتها النفسية تسوء ، فأخذت (رامى) معها وغادرت المكان .. ولم تستطع أن تحبس دموعها بدورها ..

أما (رامى) فلم يستوعب كدأب الأطفال إلا أن اليوم إجازة ، وأنه تخلص من المعلمة الشرسة التى كان - يرحمها الله - يكرهها كالشيطان .. فلماذا تبكى أمه إذن مع أن الحياة صارت أجمل بكثير ؟

وفيما بعد عرفت الأم أن المعلمة لم تكن تشكو من شىء . لم تكن تعانى أى مرض .. كلنا في الحياة سواء ، ولا يوجد قانون يمنع معلمة شابة سليمة الجسد من أن تبيت ليلتها فى القبر ..

قالت (هناء) بعد ما فرغت من قصتها :

- « هل لديك تفسير ؟ »

قلت فى تؤدة محاولاً التذكر :

- « إن عدد الأسباب التى تجعل شاباً سليم الجسد يموت فجأة ليتحدى ذاكرتى .. إن المعجزة الحقيقية هى أننا نظل أحياء ساعة أخرى .. »

ابتسمت (هناء) فى خبث وقالت :

- « وماذا عن موت صبى مثل (هشام) ؟!!! »

* * *



٤ ـ شىء ما ..

(لا بد من شىء ما دائمًا)

للمرة الأولى بدأت أهتم بالقصة .. الأطفال دائمًا مهمون ، وكل مصور يحترم نفسه يعرف أنه إذا جمعت الصورة رجلاً وامرأة ، تظفر المرأة بالاهتمام كله .. ضع امرأة وطفلاً .. يظفر الطفل بالاهتمام كله ..

سألتها فى حيرة :

ـ « مات ؟ كيف ومتى ؟ »

قالت وقد بدأ العصاب يغزوها من جديد ، وراحت ترتجف بلا هوادة :

ـ « بعد يومين .. أى أن هذا كان منذ أسبوع .. لقد عاد (رامى) ليخبرنى فى سعادة أن (هشام) مات .. لمته على ما يقول واتهمته بالكذب .. بعد هذا اتهمته بالقسوة لأن ما قاله صحيح .. »

ـ « لا عليك .. إن الأطفال ينظرون للموت نظرة غير نظرتنا .. إن الموت بالنسبة لهم (عدم وجود) لا أكثر .. وكم من أم متوفاة كانت ستموت مرتين ، لو رأت السرعة التى ينساها بها أطفالها .. كأنها ذهبت فى مشوار إلى البقال لا أكثر .. لكنك لم تفسرى لى وفاة الصبى .. »

ـ « أنت لا تعطينى فرصة لأنك تريد أن تذكر آراءك الحكيمة فى الحياة طيلة الوقت .. مات الصبى فى حادث .. كان يعبر الشارع بدراجته أمام تلك الشاحنة .. رحمه الله .. يبدو أنهم عانوا كثيرًا فى جمع أجزائه .. »

تقلص حلقى لهول الفكرة ، حتى لو كان المتوفى وغدًا شريرًا .. إنه طفل برغم كل شىء .. قلت لها :

ـ « حسن .. هذه وفاة مبررة على الأقل .. »

ـ « لكن قانون الصدفة .. ألا ترى أن هذا غريب ؟ »

ـ « غريب أو غير غريب .. لكنه حدث .. ومن الممكن أن يحدث .. فى إحدى مباريات (البيزبول) الأمريكية

طارت الكرة ، لتضرب يد مشاهد كان ينظف أذنه بعود ثقاب فى اللحظة ذاتها .. وكان أن خرق طبلة أذنه .. ماهى احتمالات حدوث شىء كهذا ؟ لماذا اختارته الكرة بالذات بين عشرين ألف مشاهد ، ولماذا هذه اللحظة بالذات ؟ لكن هذا ما حدث .. »

رفعت ثلاثة أصابع فى وجهى وتساءلت فى تحد :

ـ « ثلاثة فى أسبوع واحد ؟ »

ـ « تكلمنا عن اثنين لا أكثر .. »

قالت وهى مستمتعة بحيرتى الوليدة هذه :

ـ « الثالث هو الأستاذ (مجدى) .. حسبت هذا مفهومًا .. »

* * *

الأستاذ (مجدى) هو مدرس الرياضيات فى تلك المدرسة ، وبلغة المدارس الابتدائية نقول إنه مدرس حساب .. وبالطبع كان (رامى) يكره الحساب ككل طفل

آخر .. وكان الأستاذ (مجدى) رجلاً ضخم الجثة كالقدر شرسًا .. من ذلك الطراز الذى يتجمع اللعاب عند طرفى فمه مما يجعل النظر إلى وجهه عملاً بطوليًا .. وكان يضع عوينات غليظة يستحيل معها أن ترى عينيه ..

وفى تلك اليوم بالذات أخرج الصبى إلى لوح الكتابة ، وناوله قطعة الطباشير وطلب منه أن يحل مسألة كسور معقدة على ما يبدو .. وقد وقف (رامى) المسكين كأنه مومياء (حتب حرس) عاجزًا عن الكلام أو الهدوء أو مجرد التفكير .. وهكذا أمسك الأستاذ (مجدى) بالصبى من أذنه وراح يعتصرها ، وهو يوجه له عبارات مهينة للغاية على غرار :

ـ « ماذا تفعل فى البيت يا (أبو جهل) ؟ هل تبيع الكرنب على قارعة شارعكم ؟ »

وكان اللعاب يتجمع أكثر فأكثر حتى صار النظر إلى وجهه عذابًا .. ولم يصدق الصبى أن أذنه على هذا القدر من المرونة التى تسمح لها بأن تدور حول محورها ست مرات دون أن تنقطع ..

وفى النهاية تلقى صفعة على خده مع أمر مباشر بأن يعود (خيبه الله) إلى مقعده .. لم يبك الصبى .. كل من رأى المشهد قال إنه لم يبك .. فقط نظر للمعلم نظرة طويلة صامتة ، ثم عاد إلى مقعده ..

يقول من رأوا المشهد كذلك إن المعلم - للمرة الأولى - بدا مرتبكًا .. ارتج عليه الكلام ، وغزت رجفة ما شفتيه .. هناك من زعموا أن عينيه جحظتا ، لكنهم فى الغالب كاذبون .. إذ من يستطيع رؤية عينى هذا الرجل خلف عويناته ؟

بعد هذا بيوم أصيب الأستاذ (مجدى) بنوبة قلبية وهو فى غرفة المدرسين .. كان جالسًا يقوم بتصحيح بعض الكراسات ، والمدرسون واقفون يثرثرون .. ثم .. بوم ! استداروا ليجدوا الرجل وقد انكفأ رأسه على المنضدة وفقد النطق ..

وهنا تضرب (هناء) كفًا بكف ، وتقول فى لهجة ذاهلة :

- « قل لى الآن بربك ما رأيك ؟ هل هذه مصادفات ؟ هل ابنى مبارك إلى هذا الحد ، وإلى درجة أن كل من يضايقه يموت ؟ »

قلت لها فى شىء من الحياء :

- « لن تسمعى كلامى عن الصدفة من جديد ؟ »

- « أية صدفة يا حبيبى ؟ هل ستتحدث من جديد عن الكرات التى تثقب آذان الناس ؟ »

- « لا .. لن أتحدث عن الكرات .. »

وعقدت كفى مفكرًا بعض الوقت ، ثم سألتها سؤالاً أعرف إجابته حتمًا :

- « وما هو دورى فى كل هذا ؟ »

- « قيل إنك تفهم فى هذه الأمور .. ثم إنك قريبى .. »

فكرت حينًا .. ثم قلت لها :

- « سيكون علىّ أولاً أن أقابل الصبى .. ويحسن ألا يتم هذا فى وجودك .. »

وفتحت مفكرتى .. إن الغد مناسب لأنه لا ارتباط لدىّ من أى نوع .. سأكون فى دارك صباحًا يا (هناء) هانم ..

***

فتحت لى الباب ، وكان واضحًا أن ضيقها والصبى قد بدآ .. لا أدرى إن كان الصبى قد أنهى امتحاناته بعد ، لكن من الواضح أنه وأمه لم يذهبا للمدرسة اليوم ..

رحبت بى ، ثم أعلنت أنها ستغادر البيت بعض الوقت للتسوق ، فهززت رأسى نافيًا .. إننى سآخذ الصبى معى لنتحدث فى الخارج .. بدا عليها القلق لأنها لم تعتد ترك ابنها مع .. طبعًا خجلت أن تعتبرنى من الغرباء لكن الرسالة وصلتنى واضحة ، فقلت لها فى غيظ :

ـ « أنا قريبه يا (هناء) فكفى عن السخف .. الخطر الوحيد عليه أن أموت فى أثناء قيادة السيارة .. »

ـ « هل .. هل هذا ممكن ؟ »

ـ « وارد جدًا لكنى لست من هذا الطراز .. »

وجاء الصبى وقد ارتدى ثيابًا أنيقة واستحم كما هو واضح ، كى يكون أنيقًا جميلاً حين يقابل (عمو رفعت) .. صافحته وشعرت بالكثير من الشفقة عليه .. هذا البائس مرغم على أن تكون أمه (هناء) ، ومن المستحيل أن ينمو طفل أمه (هناء) ليعيش حياة صحية سليمة .. إن العصاب يورث كأى شىء آخر ..

واتجهنا إلى سيارتى العتيقة الواقفة أمام الفيلا ، فصاحت (هناء) فى ذعر :

ـ « كن مهذبًا مع (عمو) يا (رامى) .. كن حذرًا فى القيادة يا دكتور (رفعت) »

والجزء الأخير هو المهم بالنسبة لها طبعًا ، فتجاهلت الرد عليها وأدرت المحرك .. وسرعان ما كنا نبتعد عن الفيلا ..

سألت (رامى) وأنا أفتح جهاز الراديو على (غنوة وحدوتة) ، التى أعترف بأننى أهيم بها حبًا وأسمعها سرًا تجنبًا لسخرية الساخرين :

ـ « إلى أين تحب أن تذهب ؟ »

رفع كتفيه لأعلى بمعنى أنه لا يعرف ، وراح يرمق الطريق بعينه الصافية ، فقلت :

ـ « أنا سأقترح .. ثمة صديق لي ينتظرنا الآن ، ويهمه سماع قصصك المسلية .. »

مط شفته السفلى بمعنى أن الأمور سواء ، فبدأت أقود السيارة نحو (جاردن سيتى) .. إن د. (مونس الشافعى) لديه فكرة لا بأس بها عن قدومى ، وهو ينتظرنى بالطبع ، لكنى اتفقت معه على موعد مفتوح من طراز (صباح الثلاثاء) و (مساء الاثنين) .. فأنا لم أكن واثقًا من أن الصبى لين العريكة إلى هذا الحد ..

إن (مونس) صديق قديم لى .. ليس طبيبًا بل هو خبير تربوى ، وحاصل على أكثر من دكتوراه فى علم نفس الأطفال .. وقد قضى فترة لا بأس بها فى الخارج ، ويبدو أنه ذهب إلى الولايات المتحدة حيث قابل أكبر خبراء سلوك الأطفال هناك ، وهو د. (سبوك)

الذى لا تعتبر الأم الأمريكية نفسها أنجبت إن لم تقرأ كتبه .. باختصار يجيد هؤلاء القوم تحويل ما كنا نسميه بـ (قلة أدب العيال) و(جتها نيلة اللى عايزة خلف) إلى علم شديد التعقيد أقرب إلى الكهنوت .. وأنا آخر واحد يمكن سؤاله عن نفسية طفل ، برغم أننى أعتبر نفسى طفلاً ساذجًا حتى هذه اللحظة .. طفلاً مصابًا بتصلب الشرايين والبروستاتا وارتفاع ضغط الدم ..

قابلنا (مونس) على باب منزله والغليون بين شفتيه ، فصافح (رامى) فى حرارة وقال عبارات من نوع (ياله من رجل صغير لطيف) إلى آخر هذا الهراء .. ثم أمسك بيد الصغير واقتاده إلى الداخل ، وهو يثرثر معه كأنما هما صديقان قديمان ..ومرت مدام (شافعى) بى ـ وهى سوفيتية كما كانت الموضة وقتها ـ فهزت رأسها محيية ، ثم مرت بى كأننى قطعة أثاث وجدت هنا بالصدفة ..

جلست فى الردهة بالخارج ، وتركت (مونس)

والصبى يتساران فى غرفة مكتب الأول .. طبعًا لاداعى لأن أسود نصف صفحة بوصف (مؤنس) على سبيل التجويد الأدبى .. يمكننا فقط أن نقول إنه من طراز (أشيب ـ متأنق ـ عوينات ـ بلا شارب) .. هكذا يمكنك أن تتخيله معى ..

مرت ساعة وأنا أتسلى بتقليب بعض المجلات ، وأتأمل اللوحات السخيفة المعلقة على الجدارن .. ثم انفتح الباب وخرج (مؤنس) وحده ، مما أعطانى أملاً لا بأس به أن يكون قد قتل الصبى وأراحنى .. لكنه جلس جوارى وأعاد حشو غليونه ، وقال بعد تفكير :

ـ « لا أرى مشكلة ما .. هذا طفل شديد الانطواء والحساسية .. خيالى جدًا .. وحب أمه الشديد له قد جعله يشعر أن العالم الخارجى غابة .. »

ـ « لست بحاجة إلى خبير تربوى لأعرف هذا .. وبالطبع ستقول لى إن الحل الوحيد له هو أن يختلط بأترابه ويلتحق بناد ما .. »

ـ « أنت تتكلم بلسانى .. »

ـ « ولكن مشكلة الموتى .. الذين يضايقونه لا يرون خيرًا .. »

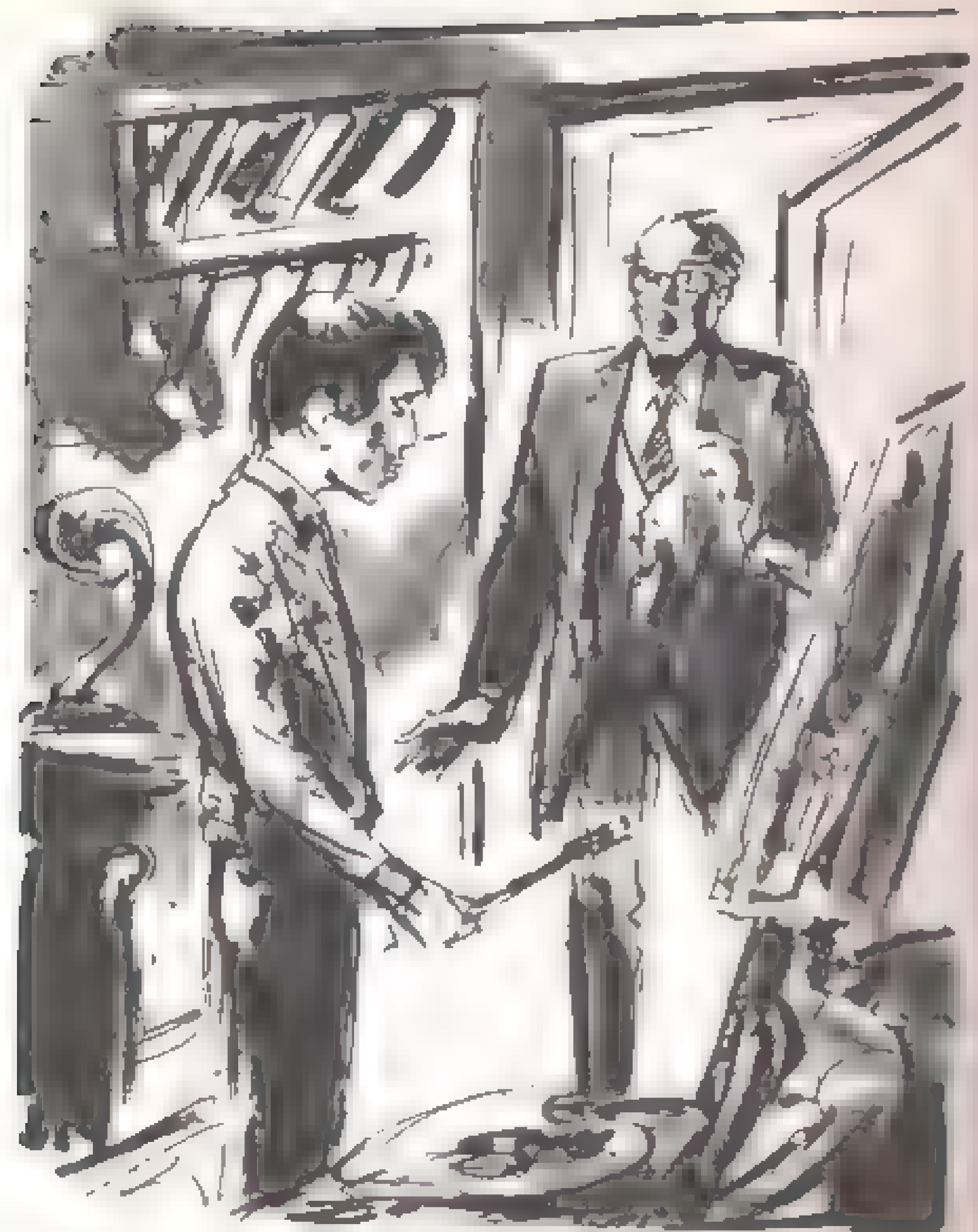
ابتسم فى تهكم وأشار بطرف الغليون إلى الحجرة وقال :

ـ « هل نصدق هذا الهراء ونتخلص من قناعاتنا العلمية ؟ ما هى قدرة هذا الصبى الضعيف على إيذاء الناس ؟ »

ـ « هل يمكن للصدفة أن .. ؟ »

قال فى حكمة وهو ينفث المزيد من الدخان :ـ

ـ « دعنى أحك لك قصة مسلية .. فى إحدى مباريات (البيزبول) الأمريكية طارت الكرة ، لتضرب يد مشاهد كان ينظف أذنه بعود ثقاب فى اللحظة ذاتها .. وكان أن خرق طبلة أذنه .. ما هى احتمالات حدوث شىء كهذا ؟ لماذا اختارته الكرة بالذات بين عشرين ألف مشاهد ؟ ولماذا هذه اللحظة بالذات ؟ لكن هذا ما حدث .. »



وهرعت إلى المكتب لأجد أسوأ كوابيسى قد تحقق .. الصبى كله قد دهن بالزيت الأزرق ..

بدأ الشريان إياه ينبض فى صدغى منذرًا بإصابتى بالفالج من الغيظ ، وقلت:

ـ « أنا نفسى قلت هذا مرارًا .. لكن الأمر يبدو وكأنه تجاوز الحد .. »

ابتسم فى ثقة العلماء ، وقال :

ـ « (رفعت) .. ليس هناك شىء كالذى تتحدث عنه .. لم يوجد ولن يوجد .. »

ساد الصمت برهة ، ثم سألته بصورة عابرة :

ـ « ماذا يفعل فى مكتبك ؟ »

ـ « يرسم .. لقد علمته كيف يستخدم ألوان الزيت وكيف .... »

ـ « ألوان الزيت ؟!! »

وهرعت إلى المكتب لأجد أسوأ كوابيسى قد تحقق .. الصبى كله قد دهن بالزيت الأزرق .. أما ثيابه الأنيقة فلم تعد بها بقعة لم تأخذ لونًا .. وكانت أصابعه فى أسوأ حال ممكن .. ستقتلنى (هناء) .. حتمًا ستقتلنى ..

قال (مؤنس) فى سرور :

ـ « إننى أرسم من حين لآخر ، ولدى حامل فى مكتبى أثبت عليه قطع القماش .. وقد سرنى أن الصبى تحمس للتجربة .. إن لديه حاسة فنية لا بأس بها .. كما ترى من المفيد أن تترك الصبى يرسم ما يخطر له .. إن هذا يحرر اللاوعى ! »

لم أجد ما أقول إلا أن آخذ الصبى فى الحال ، وأعود به إلى أمه .. بالطبع لن يكون اللقاء محببًا لكنى على الأقل قد عرفت ما جئت من أجله .. لا يوجد شىء غير طبيعى فى الصبى ، وعلينا أن نقبل قانون الصدفة باعتباره هو التفسير الوحيد لما حدث ..

* * *

٥ ـ ضيف غير مدعو ..

كان هذا فى الرابعة من صباح اليوم ذاته ، وكنت قد دخلت الفراش مبكرًا على غير عادتى ، حين دوى جرس الهاتف اللحوح المزعج يقول إنه ليس من حقى أن أنام فى هذا العالم .. خرجت عارى القدمين إلى الصالة ورفعت السماعة فجاءنى صوت (هناء) تعوى كالذئاب :

ـ « (رفعت) .. أبيبى ! هذه المرة هو قوى حقًا .. النوبة من جديد .... آى ! »

ثم سقطت السماعة من يدها على ما يبدو ..

ونظرت إلى الساعة على الجدار .. الرابعة صباحًا .. هذا حكم لا يمكن استئنافه إذن .. علىَّ أن أذهب إليها فهى وحيدة ومريضة وقريبتى .. يعنى لا مفر لى ..

وضعت براد الشاى على الموقد لأظفر بكوب ثقيل

ينعش حواسى ، ثم رحت أبحث عن القميص .. عن الجوربين .. عن الحذاء .. عن البذلة .. عن العوينات .. وحين انتهيت كان الشاى قد غلى فشربت ثلاث أو أربع جرعات ، ثم هرعت إلى سيارتى النائمة فى الظلام كوحش .. بصعوبة قبل محركها أن يستجيب .. حتى المحركات ترفض هذه المعاملة ، لكنها تستطيع الإصرار على الرفض بينما لا أستطيع أنا .. وأخيرًا تمضى سيارتى عبر شوارع المدينة الخالية النائمة ..

وصلت إلى الفيلا ففتح لى (بسطويسى) العجوز الباب ، وكان خائفًا مذعورًا هذه المرة مما يؤكد أن الأمور سيئة حقًا ..

وفى الداخل وجدتها وسط أكبر ملحمة من الفوضى رأيتها فى حياتى .. أكواب مهشمة ومفارش تم جذبها من فوق الموائد بما عليها من مزهريات .. وآثار قىء بلغ من عنفه أن اختلط بالدم .. ووسط هذه الملحمة كانت (هناء) .. على الأرض ملتوية حول نفسها تمضغ السجادة وتئن ..

إنها المرارة هذه المرة لا شك فى هذا ، وضلوعها من الجهة اليمنى لا تحتمل أنفاسى ، فما بالك بلمسة يدى ؟ وعددت نبضها وقست حرارتها بظهر يدى .. لم تكن محمومة .. إن النوبة حادة شديدة الوطء ، وأعتقد أن ما معى من عقاقير فى الحقيبة لن يفعل شيئًا .. لهذا نهضت بحثًا عن الهاتف الذى كانت سماعته متدلية كلسان مشنوق ، وطلبت الإسعاف ..

صاحت (هناء) فى جزع :

ـ « لا .. لا .. لا إسعاف ! لن أترك البيت »

ـ « لست أنت صاحبة القرار مع شديد احترامى لعقلك الراجح .. »

ـ « ولكن (رامى) !! »

نظرت إلى الصبى الذى كنت قد نسيت وجوده تمامًا .. كان يقف هناك فى الركن ودمعة متجمدة فى عينيه .. مشهد كفيل بأن يرق له قلب (كاليجولا) نفسه ، ولا عجب .. فأمه هى السند الوحيد له فى عالم

بجهله .. وها هى ذى أمه على الأرض تتلوى ..
سآخذه معنا إلى المستشفى ثم بعد هذا .. يعلم الله
وحده ما بعد هذا ..

قلت لها فى ضيق :

ـ « سأعنى به .. لا عليك .. »

وبعد وقت وجيز بما يناسب خطورة الموقف ـ حوالى
ساعة وأربعين دقيقة ـ وصلت سيارة الإسعاف ،
وأضواؤها وسرينتها تمزق أرجاء الليل الصامت .. كان
علىّ أن آخذ الصبى معى فى سيارتى لاحقًا بالسيارة
المتجهة إلى المستشفى .. وشعرت بشىء من شجن
على (هناء) الراقدة وحدها بالداخل .. لابد من امرأة ما
ـ أم أو أخت أو جارة أو صديقة ـ تكون معها فى
هذا الموقف السخيف .. لكن من أين يجيئون بالنساء
حين تحتاج إلى واحدة ؟

وفى المستشفى عرفت أننى أحمق ، وأن التشخيص
الصحيح هو ثقب فى قرحة الاثنى عشر .. وهو على كل

حال يسبب آلامًا قد تخدع الكثيرين .. لابد أنها عانت
شهورًا طويلة من آلام القرحة البطيئة ، حتى تهاوى
السد وأعلنت القرحة عن نفسها بأكثر السبل توحشًا
ووقاحة .. أخبرنى بهذا أستاذ جراحة متضايق استدعوه
من داره فى هذه الساعة من الليل .. باختصار الحالة
مقلقة بحق ولابد من البدء حالاً .. البدء فى ماذا ؟
جراحة استئصال طبعًا ..

وقضيت ما بقى من الليل ما بين الجلوس أمام غرفة
العمليات ، أو اصطحاب الصغير إلى كشك صغير مجاور
للمستشفى ، يظل ساهرًا طيلة الليل .. ابتعت له بعض
الحلوى والعصير .. وفيما بعد جلست مع (هناء) فى
عنبر الجراحة ، بينما كانت تفيق من أثر المخدر ، وتئن ..
طبعًا ستكون المفاجأة سارة حين تصحو لترى كل الخراطيم
التى تخرج وتدخل من وإلى جسدها وأنفها ..

وحين غمرت الشمس الكون ، وجدت أن علىّ أن
أعود لدارى .. فقد أرهقنى السهر بحق .. تطوعت
قريبة إحدى المريضات بالعناية بـ (هناء) لأن هذه

الأمور مقدسة عند المصريين .. والشابة ـ ياكبدى ـ ليس معها أحد .. وأمها ـ ياضناىَ ـ لا تعرف بما يدور هنا .. كان هذا مناسبًا جدًا لى لأنى بصراحة مرتبك ولا أعرف متى وكيف يحق لى الرحيل .. هل سأبقى هنا حتى تقوم الساعة ؟

وكان أول ما قالته (هناء) حين بدأت تفيق :

ـ « خذ (رامى) معك يا (رفعت) .. اعتنِ به أرجوك .. »

* * *

وفى التاسعة صباحًا دخلت إلى دارى ومعى ضيف غير مرغوب فيه على الإطلاق .. (رامى) الصغير الذى أرهقه السهر ، ونام فى المستشفى عشرين مرة على الأقل .. لكنه ذلك النوم الذى لا يمكن التعامل معه باحترام ..

ـ « هل ستكون ماما بخير ؟ »

ـ « بالتأكيد .. ستكون على ما يرام .. »

وحمدت الله على أنه لم يملأ الدنيا صراخًا وعويلاً لأن لدىَ مشكلة حقيقية مع صراخ الأطفال .. حمدت الله كذلك على أنه يعرفنى جيدًا فلم يصبه الهلع ..

أعددت له إفطارًا متواضعًا مع كوب كبير من اللبن ، ثم قمت بتمهيد فراشى كيفما اتفق ، وأسدلت الستائر ، ودعوته إلى النوم .. بالطبع لم تكن عندى ثياب أطفال لذا جعلته ينام بثيابه وقررت أن أبتاع له منامة عندما أصحو من النوم .. هذا لو صحوت طبعًا ..

لو أننى مت الآن لكان هذا أكبر مقلب يمكن عمله فى هذا الصغير .. يجب ألا أكون بهذه القسوة ..

تمددت فى الفراش بدورى بعد ما فرغت من كل طقوس الصباح ، وعقدت ذراعى على صدرى وتثاءبت كفرس النهر ، ثم سألته والنوم يداعب أجفانى :

ـ « هل الاتصال بأبيك سهل ؟ »

ـ « لا .. هو الذى يتصل بنا .. »

معنى هذا أننى فى مأزق يصعب الخلاص منه حقًا .. كابوس لن أصحو منه أبدًا ..

* * *

وعند الظهر صحوت ، فجلست القرفصاء فى الفراش ورحت أتأمل وجه الصبى النائم .. حقًا ثمة مشكلة فى عضلات جفنيه كما قالت (هناء) فهما لا ينغلقان بإحكام أبدًا .. كان يحلم الآن مارًا بطور (حركة العين السريعة) أو REM كما يسمونه ، وكنت أرى بوضوح قرنيتيه تتحركان محمومتين ذات اليمين واليسار ، مع تلك العادة الكريهة لشخص عصبى مثلى : الصرير على الأسنان .. بززززيك .. بززززيك ! صوت يحطم الأعصاب بحق ..

شعور غامض بالتقزز والنفور غمرنى وأنا أرمقه ، وما كنت أحسب أن مشهد طفل نائم يمكن أن يسببه ، لكن لم تكن لى حيلة فيه .. سأكون مسرورًا حين يعود هذا الصبى لأمه ..

أما الآن فعلىّ أن أجد فى ثلاجتى ما يصلح لغداء طفل فى مرحلة نمو ..

أعددت له بعض الدجاج المقلى مع المكرونة وهززته كى يصحو .. كان أول ما قال لى وهو يفرك عينيه :

ـ « متى ستعود ماما ؟ » *

ـ « ثق أننى أكثر منك لهفة إلى عودتها لكن من الجلى أن غيابها قد يطول بعض الشىء .. »

قال ملحًا بلهجة طفل يوشك على الانفجار باكيًا :

ـ « لكننى أريد ماما .. »

حاولت أن ألعب دور المربى الفاضل ، فقلت له باسمًا :

ـ « غسيل وجه .. مشط فى شعرك .. لقمتان .. ثم نذهب لنراها فى المستشفى .. »

هز رأسه فى غير اقتناع ، ولحق بى إلى الحمام .. المشكلة هى أنه يحتاج إلى أشياء كثيرة .. مثلاً كنت أنا فى طفولتى أكثر حيطة من أن أدخل الصابون إلى عينى عند غسيل الوجه ، والسبب هو أننى لم أكن أغسله بالصابون أبدًا (هذا لو كان ثمة صابونة واحدة فى كفر بدر فى الثلاثينات) .. أما هذا الغلام فكان لابد من أن يملأ عينيه بالصابون ويتلوى كمن يحترق فى سقر .. سنه كبيرة نسبيًا لكن نموه السلوكى متدن إلى حد كبير ..

وعلى مائدة الطعام أعلن بلا استئناف أنه غير راغب في التهام الدجاج .. فقلت ملاطفًا :

ـ « لابد من أن تأكله .. إن الصغار لاينمون من دون لحم .. »

قال في غير اكتراث وبشيء من قلة الأدب :

ـ « لايهمني ما تراه أنت .. أنا لن آكله فهو مقرف .. »

مقرف ؟ لا أحب من يصف الطعام بأنه مقرف حتى لو كان طفلاً في التاسعة .. صحت فيه مغتاظًا :

ـ « قلت لك إنك ستأكله .. ومعنى هذا أنك ستأكله لا أكثر ولا أقل .. »

ـ « وأنا لن أفعل .. »

ـ « بل ستفعل أيها الغلام المدلل .. »

وهنا نظر لي في كراهية ..

لست عصبيًا بصفة خاصة ، لكن هذه النظرة في

عينيه الواسعتين زلزلت أعماقي زلزلة شديدة .. شعور أقرب ما يكون إلى الخوف جعل قلبي ينتفض في ضلوعي ، وللحظة ساد الصمت .. ثم بصوت واهن قلت له :

ـ « إذن كُل ما تريد ودعنا نفرغ من هذا كله .. »

ونهضت إلى الحمام فغسلت وجهي .. وبحثت عن قرص للنيتروجلسرين فدسسته تحت لساني .. هل أنا واهم أم أن لهذا الصبي البريء عينين شيطانيتين قادرتين على إثارة الذعر في قلب رجل في سني ؟

* * *

ـ « إن صبية هذه الأيام شياطين لابد من حديد للتعامل معهم .. »

ـ « ماعدا البك الصغير طبعًا .. »

* * *

بعد العودة من المستشفى عرجت بـ صبري على بعض محلات وسط البلد ، فابتعت له بيجامتين وبعض القطارات

و..... إننى فى مأزق حقيقى .. يجب أن أجد امرأة ما تعنى به .. من العسير أن أصحبه إلى قريتى .. صحيح أنها قريته كذلك لكنه لم يرها قط .. ولن يتكلم مع أحد هناك .. (كاميليا) ؟ بالطبع لا .. ليس من السهل أن أقنعها بالعناية بطفل آخر ما عداى .. لقد عانت الكثير معى فى قصة الساحر الرومانى إياها ..

عدت إلى دارى وفتحت له جهاز التلفزيون الذى لا أفتحه إلا كل 38 سنة ، واخترت له مسلسلاً أجنبيًا مفزعًا لأن هذا هو ذوق الأطفال هذه الأيام .. هنا دق جرس الهاتف وكان المتكلم هو د. (مؤنس) .. هل نسيتم من هو بهذه السرعة ، وبرغم أنه الوجه الوحيد الجديد فى الصفحات الماضية ؟ إنه ذلك الخبير التربوى الذى ..

ـ « أهلاً يا (مؤنس) .. أرجو ألا تطالبنى بثمن التحليل الذى أجريته للصبى .. »

قال بلهجة صارمة وإن كانت مهذبة متحفظة :

ـ « دعنا من المزاح وحياتك .. هل تذكر تلك الجلسة جيدًا ؟ »

ـ « نعم .. الصبى عندى هنا .. إن أمه فى المستشفى لأن ..... »

ـ « جميل .. جميل .. هاته وتعال حالاً لأن هناك ما يجب أن تراه .. »

ووضع سماعة الهاتف دون كلمة أخرى ..





٦ - هذا الشيء يجب أن يدمر !

لم يخف (مونس) تحفظه وتشككه وهو يقتادنا إلى داخل شقته .. كانت الشمس تميل إلى المغيب ، ورائحة جو الصيف القادم تنذر بالسيطرة على كل شيء بعد أسابيع .. ستكون هناك عدة أيام خماسينية شديدة الوطء ، مع رائحة حبوب اللقاح القادمة من الحقول المحروثة .. رائحة (المراهقة) المعهودة ، ثم تبدأ روائح الصيف ..

قال للصبي وهو يشير إلى غرفة المكتب المفتوحة :

- « ادخل يا (رامى) وارسم كما تشاء .. إن علبة الألوان والفرشاة هناك .. لكن لا تلوث كل شيء من حولك .. »

صحت أنا محتجًا :

- « لحظة .. أنا المسئول عنه الآن ، ولو دهن نفسه بالأصباغ كما في المرة السابقة .. »

نظر لى نظرة ذات معنى ثم قال للصبى :

- « ادخل يا (رامى) .. »

بعد ما توارى الصغير - وهي كما فهمنا جميعًا مجرد وسيلة للخلاص منه (توسيعة) كما يقولون - قلت لـ (مونس) وأنا أجنب مقعدًا فى الصالة لأجلس عليه :

- « ما الموضوع بالضبط ؟ »

ودارت عيناى فى الصالة أتأملها .. لقد صرت أحفظها تمامًا بعدما جلست فيها وحدى فى المرة السابقة ، لكنى هذه المرة رأيت لوحتين لا بأس بهما تمثلان طراز رسم معينًا من القرون الوسطى ، وقد وضعتا فوق المدفأة ..

جنب مقعدًا آخر ليجلس جوارى إلى منضدة هناك ، وقال وهو يعيد إشعال غليونه :

- « ما كنت لألاحظ شيئًا من هذا ، وكنت لأترك الأمر يمر دون تعليق لولا أن (إيكتيرينا) لاحظت هذا .. »

هنا فوجئت بزوجته السوفييتية (إيكترينا الشافعي) - كما صار اسمها بعد الزواج - تلحق بمجلسنا هذا ، ولم ترهق نفسها بتبادل التحيات .. كانت من النسوة اللاتي لاتفارق لفافة التبغ شفاههن ، وقد اكتسب صوتها حشرجة وخشونة محببتين كأنه صوت (عباس فارس) رحمه الله .. قالت لي بعربية رديئة جداً ممايستعملها عادة المترجمون السوفييت خريجو معهد اللغات الشرقية .. عربية من طراز (أيها السيدون والسيداتون) :

- « هل تريد شرابًا ؟ لا ؟ ليكن .. كنت أنظف الحجرة حين رأيت الرسوم التي رسمها الصبي .. لم أصدق عيني .. أعدت النظر مرارًا ثم ناديت (مؤنس) كي يرى ما أراه .. لم تكن هناك هلاوس ما .. »

قلت لها في غباء عذب :

- « تعنين أنه موهوب ؟ إن هذا .... »

هزت أناملها الممسكة بلفافة التبغ ، وتبادلت كلمات روسية مع زوجها .. لابد أنها تسأله عن معنى (موهوب).. ثم قالت في دهشة :

- « موهوب بمعنى Talented ؟ لا .. لا .. أريد منك أن ترى الرسم .. »

ونهضت في ثقة ، وأشارت إلى اللوحتين اللتين رأيتهما فوق حاجز المدفأة حين دخلت ..

هنا فقط فهمت لماذا لم تكن اللوحتان ذاتي إطار .. لقد تم رسمهما على القماش ، وتم شد القماش على عجل فوق إطار خشبي من أربعة أضلع ..

تأملت اللوحتين في ذعر ، وشعرت بالجلد يزداد خشونة فوق ذراعي .. قشعريرة باردة تزحف على عمودي الفقري .. هذا ليس مزاحًا ..

- « هل تعنين أنه ؟ »

- « نعم .. هو فعل هذا .. »

- « أمس بينما (مؤنس) معه في المكتب ؟ »

- « (مؤنس) لم يلق نظرة على اللوحتين .. لقد كان يراقب أسلوب الصبي لا أكثر .. وبالطبع كان ينظر إلى القماش باستخفاف لاشك فيه .. لكني أمس دخلت الغرفة ورأيت هذا الهول .. »

* * *

حقًا هو الهول ذاته !

كانت خلفية اللوحتين ذات طابع أحمر مخضر غريب ، وفوقها رسم الصبى وجوه شياطين .. تتلوى .. تصرخ .. تعوى .. كأنما تتلظى فى جهنم .. الطابع القوطى العتيق للوحات لا تخطئه العين الخبيرة ولا غير الخبيرة ، جو كابوسى مريع يجعل روحك ترجف بين الضلوع ، وفيه تلك الكآبة الجهيمة التى يعرفها من رأوا لوحات الإسبانى (إلجريكو) .. حيث السماء مكفهرة منذرة بالويل والطاعون والعواصف ، بينما على الأرض أرواح معذبة ترنو للسماء بحثًا عن مفر ..

كان هناك مخلب يتسلل من جانب الصورة ، وله طابع حديث يختلف عن باقى تفاصيل اللوحة ، وتكاد تشعر بأنه يمزق قماش اللوحة ذاتها إلى أشلاء .. أما أسفلها فكان رمز غريب لايمكن تقليده بحروف المطبعة ، لكنه إلى حد ما خليط من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#)..

ما يجب أن نذكره هنا أن هذه الرسوم رسمها صبى

فى التاسعة من عمره ، وهو يمسك الفرشاة لأول مرة فى حياته ، وفى دقائق وجيزة بينما كان فى مكتب (مونس) ..

ما معنى هذا ؟ كان هذا ببساطة ضد الطبيعة .. وكل ما هو ضد الطبيعة ـ حتى لو كان طبيعيًا فى حد ذاته ـ مخيف إلى درجة لا توصف ..

* * *

ـ « المهرج مضحك فى حلبة السيرك .. لكن ما شعورك لو فتحت بابك بعد منتصف الليل لتجد نفس المهرج واقفًا فى ضوء القمر ؟ »

لون تشانى الأكبر ـ ممثل

* * *

فرغت من خواطرى السوداء فنظرت إلى الزوجة التى كان صدرها يعلو ويهبط انفعالاً ، وسألت :

ـ « ما رأيك فى هذا كله ؟ »

نفثت الدخان وقالت فى ثقة :

ـ « هذه الرسوم أعرفها جيدًا .. إنها جاءت من حيث جئت .. هذه الرسوم بيزنطية الطابع موجودة فى بعض الكنائس الروسية من عهد (بطرس الأكبر) .. وهى تنويع على .. على الشياطين كما تخيلها الرسام .. »

ـ « أعوذ بالله ! »

واستدرت إلى (مؤنس) الذى وقف صامتًا كناظور الحقل ، وسألته :

ـ « وما رأيك التربوى فى هذا كله ؟ »

هز رأسه كما يهز العلماء الذين لايعرفون رأسهم ، وقال :

ـ « لاأعرف يا (رفعت) .. لاأعرف .. هذا موقف غريب يصعب أن أجد له مثيلاً فى قراءاتى .. »

ـ « طفل يرسم بسرعة البرق رسومًا من عهد (بطرس الأكبر) .. وهذا الموضوع الكريه بالذات ..

(مؤنس) .. لاتحاول إقناعى بأن هذا الطفل غير ممسوس ! »

ـ « لا أؤمن بهذه الأمور يا (رفعت) .. لابد من تفسير علمى منطقى لكل هذا .. »

هنا تدخلت الزوجة فى الحوار وقالت :

ـ « د. (رفعت) .. هذا الطفل ممسوس فعلاً ، ويجب أن يُدمَّر ! »

قالتها فى بساطة كأنها تنصحنى بارتداء ثياب ثقيلة لأن الليل بارد .. فقلت مغتاظًا :

ـ « يا سلام ! بهذه البساطة ؟ أشترى إصبعين من الديناميت وأدسهما فى فمه وأشعل الفتيل ؟ »

ـ « هذا هو الحل الوحيد .. أنا كما تعلم ماركسية ، ولا أؤمن بأى شىء غير مادى لكنى أعرف كذلك متى أحنى رأسى للمنطق وأسلم بوجود شىء لايمكن تفسيره .. »

ورفعت إصبعها فى الهواء وكررت من جديد :

ـ « هذا الشىء يجب أن يدمَّر ! »

ـ « لقد انتهيت من الرسم يا أونكل ! »

كان هذا هو (رامى) طبعًا . وقد جاء فى أثناء المحادثة دون أن نشعر به .. وأجفلنا جميعًا لرؤيته ، لكننا وقد رأينا وجهه المحبب الوديع ، وحمرة الانهماك على خديه ، والأصباغ التى تلوث يديه وأنفه ؛ شعرنا للحظة بأننا سخفاء أكثر من اللازم .. مجرد صبى صغير أمه مريضة .. لا أكثر ولا أقل ..

قلت له وأنا أربت على كتفه :

ـ « تعال سلم على طانط (إيكاترينا) زوجة دكتور (مؤنس) .. »

صافحها فى حياء وهو يرمقها بنظرة ثابتة . فهزت رأسها له وقالت شيئًا عن موعد العشاء .. قال لى (مؤنس) فى حماس عربى :

ـ « فلنتناول العشاء معًا .. »

هنا قالت الزوجة فى كبرياء وهى تطفئ لفافة تبغها :

ـ « لا .. لايمكن .. لم يكن هناك موعد مسبق .. »

هز (مؤنس) رأسه مستسلمًا محرجًا ، وأوصلنا إلى الباب ، وهناك همس وقد صار بعيدًا عن مسمع زوجته :

ـ « معذرة يا (رفعت) .. أنت تعرف مشكلة الـ .... »

ـ « الزوجات الأجنبيات اللاتى لايفهمن عاداتنا نحن العرب .. نعم .. نعم .. أفهم هذا .. إنهن لن يفهمن أبدًا كيف يدعو الزوج العربى صديقًا له إلى الغداء دون مكالمة هاتفية مسبقة أو موعد مسبق .. لا عليك يا صديقى .. »

وابتسمت فى سرى .. لو أننى تزوجت (ماجى) لتكرر هذا السيناريو فى البداية .. لكن (ماجى) ابنة بلد

بطبيعتها ، وتعرف كيف تكيف عاداتها حسب زوجها وبلده ..

قال لى (مؤنس) همسًا كى لايسمعنا الغلام هذه المرة :

ـ « هـذا الصبى مشكلة حقيقيـة ، وتربيتـه أبعـد ما تكون عن أن تكون قويمة .. أقترح التخلص منه فى أقرب فرصة .. ليس بالديناميت كما تقترح ، ولكـن بإعادته لأبويه فورًا .. »

قلت وأنا أنظر إلى الصبى :

ـ « المشكلة هى أنه قريبى .. والمشكلة الأخـرى أنه لا مكان يذهب إليه سواى فى الآونة الحالية .. »

ـ « إذن كن على اتصال دائم بى .. »

وهكذا عدت مع الصبى إلى دارى .. سيكون هناك وقت كاف كى أسأله عن موهبة الرسم التى هبطت عليه من السماء دون سابق إنذار .. وفى الطريق مررنا على

المستشفى لنرى ما حدث لـ (هناء) .. كانت تتحسن لاريب فى هـذا ، وقدرت فى سرور أنها لن تنتظر الأسبوع بأكمله هنا .. قبلت صغيرها المخيف فى نهم ، وسألته عما أكل فى الغداء .. كأننى يمكن أن أنسى إطعامه لمجرد أننى أحب ذلك ، وطلبت منى أن أشترى له شيكولاتة ولن أعنى به .. طلبت منى كذلك أن أمنحه نزهة لابأس بها لأنه لايتنزه فى داره .. كأن الأخت (هناء) تفترض أننى (والت ديزنى) شخصيًا .. وأننى مكلف بتسلية الصبية .. تركناها فيما بعد وعرجنا على أحد المحال فى الطريق فابتعت بعض الشطائر والعصائر ..

من أين يشترون الديناميت حين يحتاجون إليه ؟

ثم زرنا إحدى دور السينما ، وكانت تعرض فيلمًا أمريكيًا متجهمًا شديد التعقيد والتحذلق يصعب فهمه علىّ أنا نفسى ، وناسبنى هذا على سبيل تعذيب الصبى .. لقد أرادت (هناء) أن أرفه عنه وهأنذا قد فعلت ..

وفى المساء أدخلته إلى الفراش ، وقبلت جبينه على سبيل الأبوة ، وإن كان الخوف يتلاعب فى أعماقى .. ثمة سر مخيف يحيط بهذا الصبى ، وحتى أعرفه من حقى التام أن أشعر بالتهيب وبعض الجزع .. لو أنك وجدت على باب شقتك حشرة حمراء ذات رأسين ولها جناح حرشفى وذيل مشقوق ، فإن الشعور الطبيعى هو التقزز والفزع .. لاتقل لى إنك ستمسك بها وتدللها وتقبلها ، لمجرد أنها حشرة مسالمة أخرى ..

جلست فى الصالة أستمتع بقصة (طارد الأرواح الشريرة) تلك القصة الرهيبة للأديب اللبنانى الأمريكى الأشهر (وبليام بيتر بلاتى) ، والتى تحكى عن استحواذ شيطانى يقع على طفلة تعيش فى الأقاليم ، مما يؤدى بها إلى أشياء غريبة بعض الشىء ، ليس الكلام باللاتينية وانقلاب الوجه للخلف بأغربها ..

هنا دق جرس الهاتف ، وأنا لا أدرى حال الهاتف فى بيوتكم ، لكنه عندى لايدق إلا حاملاً مصيبة .. (هناء) .. هل ؟ هنا جاء صوت (مؤنس) يقول وهو يشهق جزعا :

- « (رفعت) .. (إيكاترينا) ! »

قلت بأسلوبى السقيم المعتاد فى الدعابة :

- « هل توفاها الله ؟ »

تنفجر فى البكاء حتى أذابت الدموع لفظة نعم التى قالها ؟

* * *



٧ ـ البحث عن دليل ..

بعدما انتهت إجراءات الدفن ـ وكان يدفنها فى مصر لأنه لا أقارب أحياء لها فى الاتحاد السوفيتى ـ جرؤت على توجيه السؤال الوحيد الممكن هنا : كيف حدث هذا ؟

قال لى إن المرحومة دخلت الفراش مبكرًا ، ثم ـ فى الحادية عشرة مساء ـ صحت من النوم وراحت تشير لحلقها ، كان هناك غصة تخنقها .. راحت تتكلم كلامًا مختلطًا بالروسية ثم اكتسب وجهها اللون الأزرق الجميل ، وغابت عن الوجود ..

ونظر إلى (رامى) الذى كان يلعب بجوارنا ـ ما كان لدىّ مكان أرسله إليه فى هذه الظروف ـ وكتم بالطبع عشرات العبارات التى يريد قولها .. كتمها لأنه رجل عقلانى مثقف .. رجل لايحق له أن يتهم

الغلام بأنه شؤم .. لايحق له أن يقول إن نظرة الصبى الكارهة إلى المرأة ، حين سمعها تناقش فكرة تدميره ، هى السبب .. لايحق له أن يطلب منى التخلص من الصبى .. لهذا كله ابتلع تعليقاته وصمت ، لكنه كان يتحرق شوقًا للكلام ..

كان آخر ماقاله لى وأنا أهم بالرحيل مع الغلام هو :

ـ « تخلص منه فى أقرب فرصة .. إنه يبعث فى نفسى ما تبعثه سحلية تسللت إلى ياقة قميصى .. »

* * *

ـ « إن صبية هذه الأيام شياطين لابد من يد من حديد للتعامل معهم .. »

ـ « ما عدا البك الصغير طبعًا .. »

* * *

وفى المنزل كان الليل قد خيم ، حين جلست مع (رامى) نشاهد التلفزيون .. بعبارة أدق كان هو

يشاهده بينما كنت أنا أشاهد الصبى .. وذلك بنظرات مختلسة من فوق كتاب (طارد الأرواح الشريرة) .. طفل برىء وحيد تتهدل خصلة من الشعر الأسود الفاحم على عينه اليسرى ، ويكركع بالضحك ويلكم الأريكة من فرط الانفعال ، بينما (إسماعيل ياسين) على الشاشة يمط شفته السفلى العملاقة ، ويقول أشياء مضحكة .. .

يصعب علىّ أن أفترض أن سرًا مخيفًا يتوارى وراء هذه الملامح الملائكية .. ملامح الطفل لا (إسماعيل ياسين) طبعًا ..

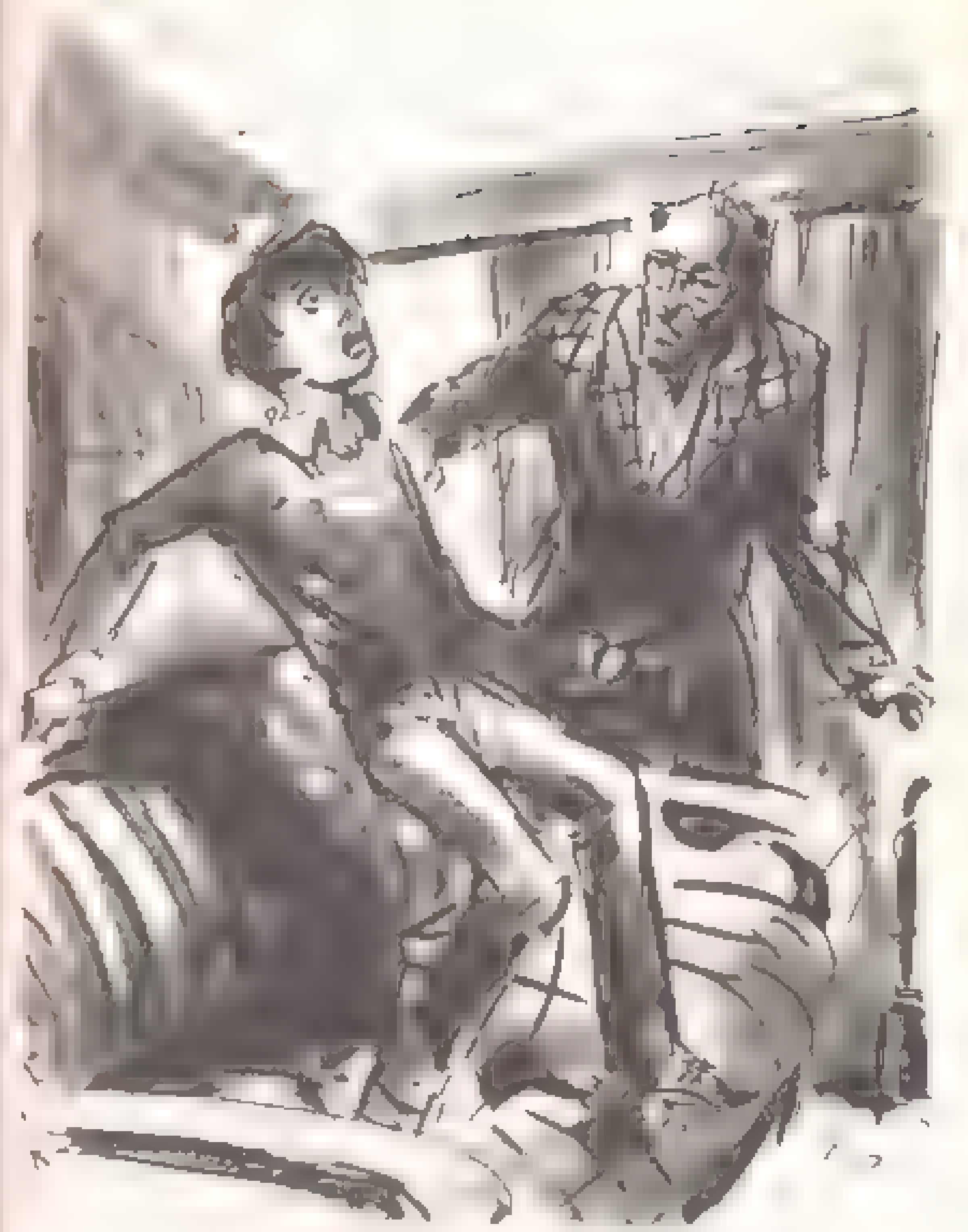
ورفعت عينى إلى سقف الصالة فرأيت البرص .. البرص .. صديقى العزيز الذى يجىء من الشرفة المفتوحة فى ليالى الصيف ، فلا يفعل شيئًا سوى أن يبقى هناك ساعات طويلة ، ثم يرحل يائسًا .. لقد أدت ساعته البيولوجية عملها جيدًا وأخبرته أن الصيف على الأبواب .. وفى الآن ذاته تصل ساعات كائنات عديدة .. وتنهدت وأنا أفكر فى أسرار الكون المستغلقة .. فى

مكان ما توجد الإجابة عن أسئلة عديدة ، مثل أين تذهب النجوم الهاوية ، ولماذا تنتحر الحيتان فى (أغسطس) ؟ وأين تذهب كل الأبراص فى الشتاء ؟ ولماذا ما زال قلبى الواهن يخفق بالحب للكون ؟

هنا رفع (رامى) رأسه إلى السقف فرآه .. وقف على الأريكة ، وأطلق صرخة عاتية ووثب مترين إلى الوراء ..

- « لا تخف يا أحمق .. إنه لا يؤذى .. إنه مثلى .. بشع المنظر طيب القلب .. »

لكن الصبى كان ينظر إلى السقف بتوحش .. كان القدماء يحسبون خطأ أن البرص يسبب مرض (البرص) - بفتح الباء والراء - وكانوا يخلطون بين البهاق والجذام ويعتقدون أن كليهما برص - بفتح الباء والراء - لكن الصبى لا يعرف شيئًا من هذا على كل حال .. ماذا أفعل ؟ بالطبع لست من الطراز الذى يبحث عن المكنسة ليهوى بها على السقف ، كى يسقط هذا الكائن التعس ، ثم مشمئزًا يلاحقه بالخف حتى يحيله إلى عجين .. لن أقتل كائنًا أعرف يقينًا أنه غير مؤذ ..



هنا رفع (رامى) رأسه إلى السقف فرآه .. وقف على الأريكة .
وأطلق صرخة عاتية ووثب متقهقرين إلى الوراء ..

لكن الأمر تم دون جهد منى ..

لقد سقط البرص من السقف فوق السجادة .. وهرعت حاملاً الخف كى أنهى المهمة على سبيل الرحمة .. وهنا وجدت أن المسكين قد مات .. هذا هو أول برص فى التاريخ يسقط فيموت .. أو هو أول برص فى التاريخ تقتله الصدمة العصبية أو نوبة قلبية ..

تخلصت من الجثة حزينًا .. هو ذا صديق آخر لن أراه بعد اليوم .

وعدت من الشرفة لأجد الصبى قد عاد يتابع فليم (إسماعيل ياسين) فى نهم .. هذا صبى فعال .. صبى قادر .. مجرد نظرة كراهية واحدة تنهى أية مشكلة ..

قلت له فى هم :

ـ « حان وقت النوم .. سأطفئ التلفزيون الآن ؟ »

صاح متوسلاً بتلك اللهجة الذليلة التى يجيدونها :

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لأن الأولاد المحترمين لايظلون ساهرين بعد العاشرة مساء .. أو هذا ما قيل لنا .. »

ـ « لكنى أريد المشاهدة .. »

ـ « وأنا أرفضها بحماس شديد .. »

كان يغلى غيظًا الآن ، وهذه المرة رفع نحوى عينيه .. كانتا مفعمتين بالكراهية والحقد .. كراهية لم تبد فى عينى قاتل ينظر إلى جلاده قبل الإعدام .. وشعرت بالدم يتجمد فى عروقى ورغبة عارمة فى القىء .. هنا رفعت يدى لأوقفه حالا ، وصحت :

ـ ليكن .. ليكن .. انته من الفليم إذا أردت ! »

بدت ابتسامة ودود على وجهه ، وعاد يتابع الفيلم .. وجلست أنا أرتجف ، وأحاول أن أدفن همومى فى الكتاب الذى أقرؤه ..

لا أدرى متى ولا كيف نام ، لكنه فعلها أخيرًا فحملته إلى الفراش ، وغطيته بالملاءة ورحت أتأمل وجهه ، وفى ذهنى عشرات الأسئلة ..

* * *

ولماذا أفرض الآن أن الأمر خارق للطبيعة ؟ إجابة سهلة جدًا .. لدينا ذلك الصبى (هشام) والمعلمة والأستاذ (مجدى) والزوجة السوفييتية والبرص البائس .. كل هذه ليست مصادفات .. إن قانون المصادفات نفسه ليعلن عن عجزه عن تفسير ما يحدث .. الرسوم البارعة التى رسمها صبى فى التاسعة .. لا تقل لى إن هذه موهبة مبكرة .. كلا يا صديقى .. قل هذا لأحمق غيرى ..

متى بدأت هذه التغيرات ؟ أو هذه الظاهرة ؟

هل ثمة حادثة مهمة وقعت للصبى ؟ طبعًا لم تكن حادثة الفيلا التى اقتحمها الصبى ذات أهمية ما بالنسبة لى .. إنها كذلك بالنسبة لأمه المذعورة دائمًا ، والتى تؤرخ بالتأكيد كل جرح فى إصبعه وكل خدش ..

لكن يمكن القول دون خطأ كبير إن هذه هى نقطة البداية ..

ماذا رآه الصبى هناك ؟ ما هى المعاملة أو التجربة

التى مر بها فى اللحظات النادرة التى كان وحده فيها ؟

هذه هى نقطة البدء بالنسبة لى ..

* * *

فى الصباح أيقظته فانهال علىّ بالركلات والسباب ـ سباب الأطفال المهذبين طبعًا من طراز (رذل ووحش) ـ لكنى أصررت على أن ينهض .. أريد أن أطعمه وأذهب إلى العمل .. لدىّ عمل مهم اليوم ، وإن كان علىّ أن أصحبه معى طبعًا .. وهنا نهض من الفراش وراح يرمقنى بأكثر نظرات الكراهية تجردًا وقسوة ، وشعرت بالدم يتجمع فى رأسى فقلت له وأنا أتراجع للوراء :

ـ « ليكن .. واصل النوم .. أنا آسف .. »

وابتعدت وأنا أجاهد كى أسترد أنفاسى المبهورة .. هل الوهم أم أن هذا الصبى حقًا قادر على ذلك ؟ الحقيقة هى أننى لم أعد سيد دارى ، وصار هدفى الوحيد إرضاء هذا الغلام .. هو من يملى جدول أولوياته علىّ ، وعلىّ

أن أقبل .. المشكلة هى أننى رأيته يغضب .. وغضبته ـ والحق يقال ـ كريهة فعلاً ..

وهكذا واصل الوغد النوم حتى العاشرة صباحًا ، وشربت أنا ثلاثة أقداح من القهوة ، والتهمت أعصابى على سبيل الإفطار ..

بعد ما انتهى من طقوس الصباح ، وفرغ من إفطاره الدسم ، جلس أمامى منتظرًا برنامج اليوم ، فقلت له :

ـ « هل أنت معتاد الرسم ؟ »

ـ « أحيانًا أرسم .. »

ـ « ولم تستعمل الزيت قط ؟ »

رفع كتفيه لأعلى بما معناه (لم أفعل) .. وهذه الإيماءة هى البديل الحركى للفظة (تؤ) التى تقولها الفتيات المدللات المتدللات .. عدت أسأله :

ـ « كيف رسمت تلك الأشكال التى رسمتها عند دكتور (مؤنس) ؟ »

ـ « لا أدرى .. أحببت أن أرسم فرسمتها .. »

ـ « وهل تدرك معنى ما رسمت ؟ »

رفع كتفيه من جديد لأعلى أن لا .. كما توقعت تمامًا .. هذا الصبى لم يرسم ولكنه لعب دور فرشاة الرسم ، ليد أخرى أكبر وأقدر منه . من صاحب هذه اليد ؟ وما حدود قدرته ؟ ولماذا الصبى بالذات ؟

نهضت إلى مائدة الطعام فقمت بجمع الأطباق ، لكنى أخرجت منديلى وأمسكت به الكوب والملاعق ، وألقيت بها فى كيس ورقى .. وقلت له وظهرى يدارى ما أفعل :

ـ « هل يمكننا أن نمر على دارك بحثًا عن بعض الألعاب ؟ »

ـ « أية ألعاب ؟ »

ـ « أريد ألعابًا قديمة .. ألعابًا لم تمسها من زمن .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « أحاول أن أسليك .. لاتكثر من الأسئلة وثق بى .. »

وهكذا تروننى الآن أقف بسيارتى على مدخل الفيلا .. يخرج عم (بسطويسى) العجوز يرمقنا فى غباء .. إنه يعرفنى ويرى (رامى) معى فلايعترض ، لكننى أرتاب فى رد فعله لو اقتحم الفيلا مجموعة من الملثمين يلبسون كنزات مخططة بالعرض ، ومعهم طفاشات وحقائب معدة لملئها .. لن يفعل شيئًا أيضًا وقتها ، وسيلقى السلام على الداخلين ثم يعود لشرب سجائر اللف ..

ـ « كيف حال الهانم يا (رامى) بك ؟ »

لم يرد (رامى) ـ وكل الصبية فى سنه لايردون على من يخاطبهم ـ بينما ألقى الرجل تحية شبه عسكرية لى ، وتساءل عن سبب تشريفى هنا ، فقلت بلهجة عملية وأنا أزيحه جانبًا :

ـ « ثمة أشياء نسيناها هنا .. إننى أعنى به كما تعلم .. »

وفى الفيلا الخاوية دخلنا غرفة الصغير - التى لم ينم فيها قط - وسألته بعينى عن بعض الألعاب الخاصة به .. كانت الأرض فوضى حقيقية من الشاحنات البلاستيكية والمسدسات المكسورة والسيارات التى تلف زنبركها ، لكنى كنت راغبًا فى لعبة قديمة .. أشار إلى (شوفينيرة) صغيرة فى الركن .. واتجه ليفتح درجها السفلى ويمد يده ليخرج لى ما تكدس فيه من ألعاب .. كانت ألعابًا بدائية من طراز (الشخشيخة) و(النفير) .. الخ ، مما أكد لى أنه لم يمسها من زمن حقًا ..

صحت مذعورًا :

- « لا .. لا ! لاتلمس شيئًا ! سأفعل هذا بنفسى .. »

وأخرجت الكيس الورقى والمنديل ، ورحت أنقل بعض هذه الألعاب إلى داخله دون أن ألمسها .. لم يكن أطفال هذا الزمن بالوعى والذكاء اللذين يميزان

أطفال اليوم ، وأعتقد أن الصبى لم يفطن إلى مغزى ما أقوم به .. فلما فرغت نهضت وأشرت له أن يتبعنى ، فقد حان وقت الرحيل ..

وانطلقت بسيارتى العتيقة ، على حين وقف الخفير على الباب يصيح :

- « أبلغ سلامى للهانم يا بك !! »

* * *

كان (رامى) يذرع الردهة أمام قسم الطب الشرعى جيئة وذهابًا .. وهو يصدر أصوات محرك سيارة ، ثم يوشك أن يرتطم بأحد المارة فيتوقف ويصدر صرير فرملة سيارة من فمه « إى ى ى ى ى ى ى ! » .. ووقفت فتاة تداعبه بعبارات من طراز : إن فراملك فاسدة .. يجب أن نذهب إلى قسم الشرطة ..

وكان د. (مراد) مدرس الطب الشرعى الشاب جالسًا أمام المجهر .. إن د. (مراد) - كما لابد أن الأذكياء

قد فهموا ـ شاب يقوم بتدريس الطب الشرعى هنا ..
صديق عزيز هو .. ليس إلى حد تبادل الزيارات طبعًا ..

كان عاكفًا على دراسة البصمات الموجودة على الأشياء التى جمعتها ، وقد تعلمت منه فى الساعة الماضية كيف يرفعون البصمات باستخدام المسحوق والشريط اللاصق ، وكيف يثبتونها على الشرائح ويفحصونها بالعين المجردة أو تحت المجهر ..

قلت له وهو منهمك لاينظر لى :

ـ « كما ترى .. هناك مجموعتان من البصمات .. بصمات قديمة تعود لما قبل حادث الفيلا .. وبصمات جديدة تعود لما بعد الحادث . بصمات قديمة لطفل وديع اسمه (رامى) .. وبصمات حديثة لذلك الشىء الذى يبيت فى دارى .. لو تطابقت البصمات فمعنى هذا أن الصبى هو الصبى ، وأن علىّ أن أعرف سبب تبدل شخصيته .. أما لو اختلفت البصمات فمعنى هذا أنه ليس (رامى) .. هذا طفل آخر !! »

قال فى سخرية دون أن ينظر لى :

ـ « تتكلم عن هذه الترهات كأنها حقائق علمية .. »

ـ « لقد رأيت فى حياتى الكثير ، وصرت على استعداد لتصديق كل شىء .. وعلى كل حال عليك أن تتحملنى مادمت صديقى .. »

بعد قليل رفع عينيه المنهكتين المحمرتين عن المجهر ، وفركهما قليلاً ثم قال :

ـ « هل أنت متأكد من دقة أخذ هذه البصمات ؟ »

ـ « بالنسبة للبصمات على الألعاب ؛ ربما وجدت بصمات أمه وأبيه .. لا أضمن هذا .. »

ـ « كل البصمات تخص أطفالاً .. لاشك فى هذا .. لكنى أتكلم عن البصمات على الكوب والملاعق .. »

ـ « ماذا بها ؟ »

قال وهو يشعل لفافة تبغ : »

- « لدى خمسة أنواع من البصمات .. بل إن كل ملعقة وشوكة تحمل نوعًا مختلفًا منها .. وكلها على كل حال لا تمت بصلة للبصمات الموجودة على الألعاب ! »

ونفث الدخان وأردف :

- « يخيل إلىّ أنك جئت بأدوات المائدة هذه من روضة أطفال !! »

* * *

٨ - لا بد من العودة إلى هناك ..

تماسكت حتى لا أصاب بالفالج .. وشكرته على ما قام به من جهد ، ثم خرجت إلى الردهة أرمق هذا الشيء يلعب مع الطلبة المارين .. دنوت من النافذة ورحت أعب الهواء عبًّا حتى لا أفقد الوعى .. هذا الشيء ليس شريرًا فحسب بل هو يعابثنى بقسوة .. بصمات الصبى تتغير من ثانية لأخرى بحيث يستحيل أن تعرف من هو بالضبط .. لابد من نهاية لهذا العبث .. لابد من مخرج ..

* * *

بعد يومين :

دخلت المطبخ لأعد الغداء ، بينما جلس (رامى) فى الصالة يتسلى بالرسم فى دفتر ابتعته له .. الفكرة هنا أننى آمل أن أجد فى رسومه منفذًا يضىء لى طريقى ..

كنت أتوق إلى الخلاص منه، صباح اليوم كانت الأمور لا بأس بها أبدًا فى المستشفى .. ويبدو أن (هناء) يمكن أن تعود لدارها غدًا أو بعد غد .. علىّ أن أتحمل الصبى بعض الوقت لا كل الوقت .. إنه مجرد طفل وقريبى وابن قريبتى .. فلست فى حل من تدميره أو خنقه بالوسادة .. سيكون تفسير هذا عسيرًا بعض الشىء أمام وكيل النيابة ثم أمام طبيب الصحة العقلية بعدها ..

أدركت أن علىّ أن أجد أحدًا يتولى أمر هذا الشىء الصغير .. ربما لو اتصلت بقريتى (كفر بدر) لاستطعت أن أحضر عمة أو خالة مسنة تقبل العيش فى الفيلا مع الصبى إلى أن تشفى (هناء) ..

وهنا توقفت .. هذه فكرة مختلة .. لم أعد متأكدًا أن هذا طفل أصلاً .. ربما كان مصير البائسة التى سأجلبها للعناية به هو الموت .. والصبى فعال بما لا يقاس كما رأينا .. لو كنا فى القرون الوسطى - ولحسن حظه أن هذا غير صحيح - لاقتادوه بحبل من ليف فى عنقه

إلى أمام الأبرشية ولحرقوه تطهيرًا لجسده .. إنه متمرد تربويًّا ولن يطول الوقت حتى يختلف مع البائسة ، وعندها ..

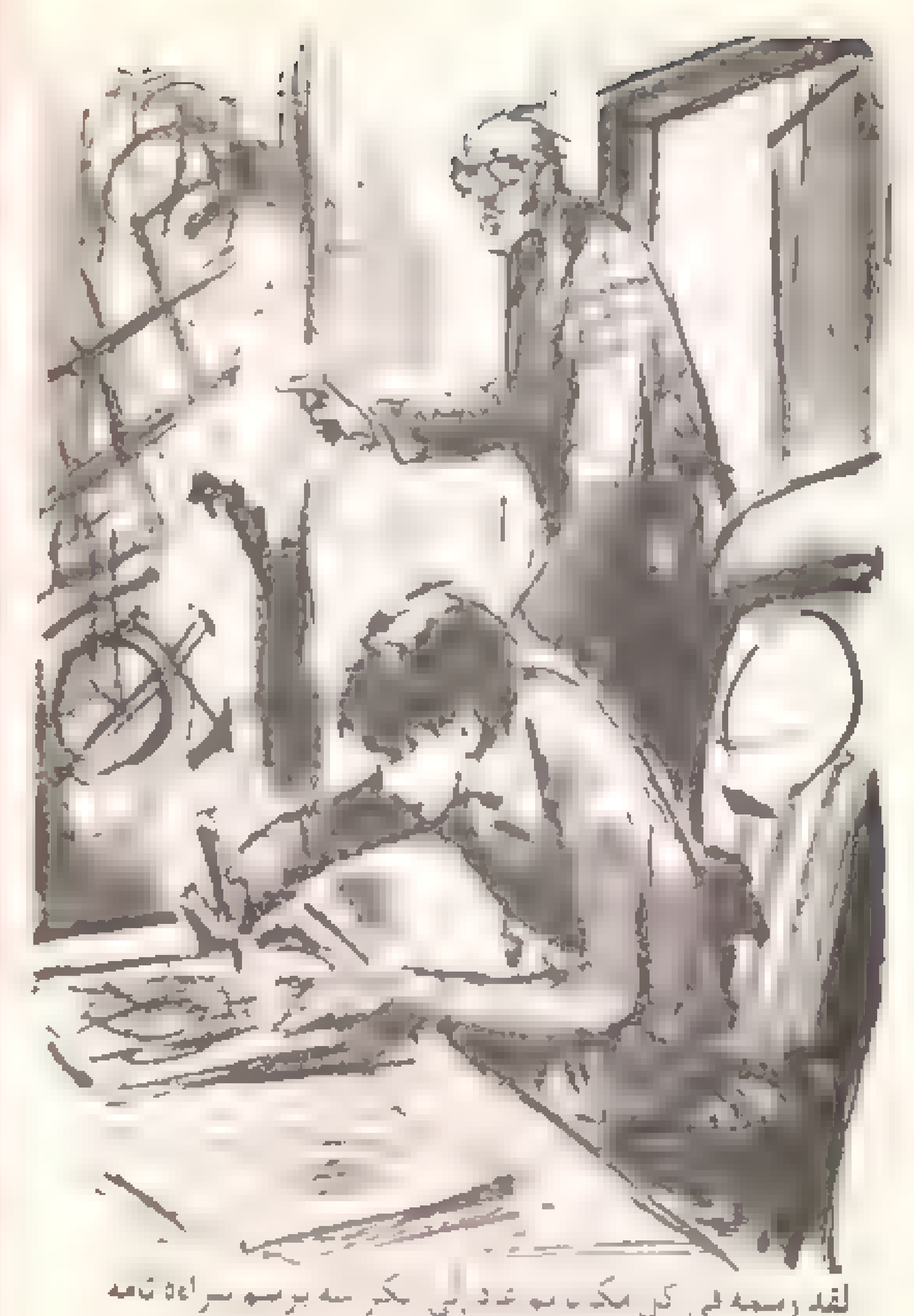
وخرجت إلى المكتب لأجلب بعض الزيت .. تسألنى لماذا أحتفظ بالزيت فى المكتب ، فأقول إن هذا ليس موضوعنا الآن .. المهم أننى وجدت جدران الصالة كلها متسخة وقد رسم عليها ذلك الرمز الغريب ، الذى هو خليط من العلامة (*) والعلامة (#) .. لقد رسمه فى كل مكان ثم عاد إلى الكراسة يرسم ببراءة تامة ..

- « ما هذا الذى فعلته ؟ هل جننت ؟ »

هنا نظر لى فى كراهية وضيق .. عندها تراجعت تمامًا .. لا يجب إثارة حنق هذا الصغير .. لا يجب أبدًا .. إن من حقه التام أن يرسم كل ما يريد على جدران بيتى ، والويل لى إن احتججت ..

دنوت منه لأسأله فى رفق ومداهنة :

- « لماذا رسمت هذا الرسم بالذات ؟ »



لقد رسمه فى كل [illegible]

ـ ما هذا الذى فعلته ؟ هل جننت ؟

رفع رأسه واستنشق كى لايسقط المخاط من أنفه .. وكل الأطفال تسيل أنوفهم عند الرسم على كل حال .. قال لى :

ـ لا أدرى .. أحببت أن أرسمه .. »

هل هى رسالة ؟ هل يحاول إبلاغى بشىء ما ؟ من يحاول ؟ هو أم من استحوذ عليه ؟ الحقيقة أننى لا أعرف .. وليست لدىَّ أدنى فكرة عن كيفية التصرف ..

وفى المطبخ رحت أرمق السمكتين اللتين تسبحان فى الزيت مع صوت القلى الرتيب .. تششششششش !! ورحت أفكر .. سأرتب الأمر منطقيًا كعادتى :

1 ـ بدأ كل شىء بعد دخول الغلام تلك الفيلا ..

2 ـ لم ندر ما حدث هناك سوى لقائه بذلك المتسول كما يقول هو ، أو الغريب المخيف كما قال صديقاه ..

3 ـ الصبى يرسم موضوعات غريبة .. يرسم شياطين بيزنطية من روسيا القديمة ، فما معنى هذا ؟ هل أصل القصة من روسيا ؟

4 ـ الصبى يكرر هذا الرمز الغريب ، وهو لايمت لرمز سحرى معروف مثل النجمة الخماسية أو الصليب المقلوب ..

5 ـ هل (رامى) هو (رامى) وقد اكتسب قوى غامضة ، أم أن هذا طفل آخر ؟ لو كان هذا صحيحًا فأين (رامى) الحقيقى ؟ إن لعبة البصمات هذه جعلتنى أميل إلى الاحتمال الأخير ..

وبعد تقليب الاحتمالات فى ذهنى ، والسمك فى المقلاة ، كنت قد وصلت إلى قرارى الأخير . كل شىء يبدأ وينتهى فى فيلا (أبو العلا) هذه .. عندها بدأ كل شىء وعندها ينتهى كل شىء .. لابد من دخولها ومحاولة الفهم .. لكنى بالتأكيد غير راغب فى دخولها مع الصبى ..

إذن ماذا أفعل ؟ كيف أتخلص منه مؤقتًا ؟

إن الحل سهل وقريب .. الساعة الآن الثالثة بعد الظهر ، وهو موعد استيقاظ (عزت) من النوم ، خاصة وهو لم يكن فى الإسكندرية أمس .. أنتم تذكرون

(عزت) وتعرفون أنه مصاب بداء عضال اسمه (حب الإسكندرية) .. لو تكلم الكورنيش ؛ لوجد عسرًا بالغًا فى تذكر آلاف المرات التى رأى فيها ذلك الرجل النحيل القاتم المدثر بثياب ثقيلة ، الذى يمشى عليه بلا هدف وبلا نية استمتاع واضحة .. كأنه منتحر يوشك على إغراق آلامه فى الماء المالح ..

وبسرعة انتشلت السمك وجلست أنهى وجبتى مع الصغير ..

وقرعت باب (عزت) ففتح لى وهو يلوك بعض الإفطار / الغداء .. فلما رآنى توجس خيفة ..

قلت فى مرح وأنا أقدم له (رامى) :

ـ « مهمة عادية جدًا .. طفل برىء سيظل معك حتى الثامنة مساء .. »

ـ « هذا .. هذا .. كل شىء طبيعى وصحى إذن .. هل هو قريبك ؟ »

ـ « نعم .. »

وانتحيت به جانبًا وهمست فى أذنه :

ـ « لا أريد أن أفزعك .. لكن من مصلحتك الخاصة ألا تثير غضب هذا الصغير بأية صورة .. لو طلب منك أن تقف على أنفك وتمضغ عصا مكنسة فافعل ما يقول .. »

بدا عليه الرعب الممزوج بالغباء ، وتساءل :

ـ « حقًا ؟ لماذا ؟ »

ـ « لو قلت لك لرفضت أن تضيفه عندك .. وأنا لست أحمق ! »

هنا ركل (رامى) ساقى وانفجر فى البكاء :

ـ « هل ستتركنى هنا مع هذا الرجل المخيف ؟ إنه كأشباح القصص .. »

ـ « بل هو لطيف جدًا ياحبيبى .. إنه ألطف إنسان عرفته .. هلم يا (عزت) .. أره كم أنك رقيق .. »

ابتسم المسكين مكشرًا عن أنيابه ، بينما الطعام مازال يملأ جانبى فمه ، ولم يكن التأثير النهائى محببًا ..

ـ « قلت لك إنه مخيييييييف ! لسوف أخبر ماما بكل شىء ، وأقول لها إنك تخلصت منى .. »

كان الموقف خطرًا لأن نظرة الكراهية تلمع فى عينيه .. لهذا قررت أن أتلطف أكثر .. قلت لـ (عزت) فى مداهنة :

ـ « (عزت) .. أنت ستعلم (رامى) كيف يصنع تمثالاً ، ولسوف تلعبان بالصلصال كثيرًا جدًا جدًا .. »

هنا فقط بدأ (عزت) يروق للطفل .. فله إمكانيات

أخرى غير كونه يثير الرعب فى القلوب .. وببطء تراخت كفه المتقلصة على كفى ، وبدأ يدخل إلى داخل الشقة ..

همس (عزت) وهو يمسك بذراعى :

ـ « ألن تقدم لى تفسيرات ما ؟ »

ـ « ربما فيما بعد .. »

ـ « ومتى ستعود ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكن الموت ليس مدرجًا فى جدول أعمالى اليوم .. »

وبعد ثوان كنت أستقل سيارتى خارجًا من زحام القاهرة .. للمرة الأولى أنا وحيد منذ أيام بدت كالدهر .. وقد صممت على أن أنعم بوحدتى هذه قدر الإمكان ..

* * *

ـ « إن صبية هذه الأيام شياطين لابد من يد من حديد للتعامل معهم .. »

ـ « ما عدا البك الصغير طبعًا .. »

* * *

لولا عرجت على فيلا (هناء) لألقى (بسطويسى) العجوز الجالس على الباب يدخن سجائر اللف ، ويستمع إلى (محمد رشدى) بصوته اللامع البراق ينبعث من المذياع .. فلما عرفنى ـ بعد مشقة ـ نهض ولوح بالسيجارة وسألنى عن حال الست هانم والبك الصغير .. سألته عن الأب .. هل اتصل بعد ؟

ـ « لن نعرف يا دكتور .. إن الهاتف بالداخل وأنا لا أدخل الفيلا أبدًا .. »

سألته بكثير من التدقيق عن الأيام التى تلت ذلك الحادث .. وأنا أسميه حادثًا لأنه ليس لدىّ تفسير آخر للتحول الذى طرأ على الصغير بعدها .. لم يكن هناك

شىء غريب سوى .. سوى موت الكلب الذى كان يخيف الصغير كثيرًا ، والذى كان يحرس فيلا مجاورة .. لقد وجدوه فى عرض الطريق ميتًا بلا تفسير واضح ، وقيل إن اللصوص قدموا له السم .. طبعًا كلنا يعرف أن اللصوص أبرياء هذه المرة ..

ثانيًا حاولت أن أعرف منه المزيد عن فيلا (أبو العلا) لكن الرجل كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويرفض الحديث متبعًا تقاليد (التابو) المقدسة لدى القبائل البدائية : ذكر اسم الروح الشريرة يجعلها تأتى .. كان الرجل يعرف .. يعرف الكثير .. وهذه نقطة مهمة يجب أن أتذكرها ... إنه بواب يخالط البوابين المخضرمين هنا ، وبالطبع يسمع ثرثرتهم ..

يجب أن أعرف ، ومن المؤسف أنه لا توجد طريقة أخرى ..

* * *

وكانت الشمس توشك على الانحدار نحو الأفق الغربى حينما وقفت أمام الفيلا .. حقًا لم تكن (هناء) تبالغ حين وصفتها بأنها دغل ، ولم أبالغ أنا حين قلت إننى لم أكن لأندهش لو برز رأس ديناصور من بينها ليخور خوارًا عميقًا يرج الشارع رجًا ..

أكره هذا الوقت بالذات كى أبدأ المغامرة .. كنت فيما مضى أشاهد أفلام مصاصى دماء (هامر) فتذهلنى السرعة الجهنمية التى تهوى فيها الشمس غربًا فى تلك الأفلام .. إنهم يتجهون للقصر ظهرًا .. يدخلون القبو عصرًا .. يفتحون التابوت وقد غربت الشمس ، وبالتالى لابد من أن يفتح مصاص الدماء عينيه الدمويتين قبل أن يصل الوتد إلى قلبه .. عندها ينهض ! ونهضته ليست بالضبط ذكرى محببة !

لكن الفرصة لن تتكرر كثيرًا .. إننى مسافر بلا متاع .. خفيف كالسنونو من دون الصبى ..

وقفت أمام باب الفيلا الصدئ الموارب ، ثم أزحته .. كان ثقيلاً كما ينبغي أن يكون .. وكان له صرير كما يجب أن يكون له .. وتذكرت شيئًا مماثلاً مع بيت في المنصورة ، لكني وقتها لم أكن وحدي .. كان معي أولاد خالي و .... ودخلت ..

* * *



٩ ـ عجوز وحيد يحاول أن ..

كلا .. لم تتفتح أبواب الجحيم ، ولم تعو الذئاب أو ترتج الجلاميد في الوديان القصية ..

لم يحدث شيء ذو بال .. كانت حديقة عادية جدًا لها كل مزايا وعيوب أية حديقة لم تلق عناية منذ دهور .. كانت هناك زاحفة ما تصدر صوتًا غريبًا من بين الأحراش .. لا تنسوا أن هذه بداية الصيف حين تقرر كل حشرة غريبة وكل زاحفة أنها حية ، وأن عليها أن تتحرك وتتناسل ..

سحلية ركضت على حذائي وأنا أمشي بين الأعشاب فأجفلت .. وثبت للوراء مترًا ودعوت الله ألا تكون الثعابين منتشرة هنا .. ما زالت الإضاءة جيدة لكن هذا المكان سيصير كابوسًا حقيقيًا حين يجن الليل ..

لم يكن المبنى ظاهرًا من هنا ، ولكني أدركت يقينًا

أننى سادخله ، وهذا هو أسوأ جزء فى الموضوع .. مبنى متسخ مظلم تفعمه العناكب والوطاويط ورائحة العطن .. هذا عمل قذر بالتأكيد ، لكن لابد من أن يقوم به أحمق ما .. تفقدت السيارة الواقفة التى تعود طبعًا إلى العصر الحجرى ، وكانت أبوابها مفتوحة .. وبالداخل كانت أسرة من القطط البيضاء تلتهم شيئًا ما .. قطط جائعة إلى حد أنها لم تلحظ وجودى .. كان تنجيد المقاعد ممزقًا متربًا ، ولم يبق شىء فى تابلوه السيارة بالطبع ..

نهضت متثاقلاً ومشيت نحو البيت .. البيت الذى شعرت كأننى ثابت وهو يقترب منى باستمرار .. أزيح الغصون جانبًا وأواصل المشى .. ومددت يدى لجيبى وابتلعت بعض الأقراص من دواء القلب .. لا يجب أن يخذلنى الآن .. إننى رأيت كل أنواع الأهوال فى حياتى المباركة ، ولكن ـ الطريف ـ مازلت أقابل كلاً منها كأنه شىء جديد تمامًا ، وقلبى ذلك الطفل الأبله يأبى أن يتعلم أو يتعود ..

سأرى الهول فى هذا البيت .. أشعر بذلك .. أشمه ..

* * *

وكيف أعرف أن (عزت) فى هذه الأثناء جالس فى شقته يعلم الصبى كيف يشكل بعض الصلصال ؟ لقد نهض تاركًا الصبى ، وتاركًا المذياع يقدم بعض الموسيقا الكلاسية .. ودخل المطبخ ليلتهم بعض المخللات كعادته ـ لا تنس أنه مريض ـ وأعد بعض الشيكولاتة الساخنة باعتبارها بالتأكيد تروق لصبى وقح ..

بالطبع لم ير الصغير شيئًا من طقوس غلى الماء وغسيل الأكواب ، وإلا لمات اشمئزازًا وأراحنا .. المهم أن (عزت) عاد حاملاً كوبين يبدو مظهرهما مطمئنًا .. وضعهما على المنضدة ليبردا .. هنا توقف قلبه ذهولاً ..

نهض وأعاد تأمل المشهد مرتين وثلاثًا لكنه كان حقيقيًا تمامًا .. إن ما صنعه الصبى بالصلصال ليفوق الوصف .. إنه أغرب وأبدع وأبشع ما رآه فى حياته ..

- « أنت فعلت هذا ؟ »

هز الصبى رأسه واستنشق ليمنع المخاط من التدلى كالعادة ، فسأله (عزت) :

- « أين رأيت هذا ؟ »

- « لم أره قط .. لكنى أردت أن أصنع مثله .. »

فتح (عزت) فاه فى غباء ، وأعاد تأمل المشهد ..

دار حول التمثال بضع دقائق ، ثم نهض مسرعًا إلى الرف الخشبى المربوط بحبلين ، والذى يعتبره المكتبة .. على الرف كان ذلك المجلد الإيطالى براق الصفحات والذى يظهر بعض أعمال النحت الشهيرة عبر العصور .. لقد رأى هذا التمثال مرارًا ويعرف معناه .. قليل من الناس كان يملك هذا التمثال فى العصور الوسطى ، وكان ثمن حيازته باهظًا . فى الغالب كان الحرق هو مصير الساحر الذى يجدون لديه تمثالاً للشيطان (بيموك) .. الفيل منتفخ البطن الذى يمشى على قدميه الخلفيتين ، ويتحسس بطنه فى جشع ..

(عزت) كان يعرف هذا لأنه مثال مولع بالتماثيل القديمة .. ولكن من أين عرف الصبى هذا ؟ وإن عرفه كيف استطاع أن يسيطر على يديه الصغيرتين كى يشكله من الصلصال ؟

كان (عزت) يقف متصلبًا عاجزًا عن الكلام ..

لكن القشعريرة بدأت تزحف على عموده الفقرى ببطء ، كأنما تغطيه بطبقة من الثلج ..

هذا ليس طفلاً عاديًا .. ربما ليس طفلاً أصلاً ..

* * *

أنا الآن فى مدخل الفيلا العتيقة .. (اللوبى) كما يسمونه ..

كان المشهد بالداخل أقل سوءًا مما تخيلت ، ويمكن بشىء من التجاوز اعتبارها مجرد فيلا متسخة مغبرة تملؤها العناكب .. لم يكن هناك أثاث وهذا أفضل .. لا أحب مائدة الطعام الطويلة المغطاة بالأتربة وأنسجة العناكب ، حتى كأنها قاعة عرس

مس (هافيشام) فى رائعة (ديكنز) (آمال كبار) .. هل قرأتموها بعد ؟ لا ؟ إذن لا تنسوا ذلك لو ظللنا أحياء ..

مشيت أتحسس مواطئ قدمى ورحت أرفع ساقى فى حذر .. لقد صارت الرؤية أكثر عسرًا والسبب ليس قدوم الليل ، بل لأن هذه الفيلا صارت بيئة معادية للضوء .. بعد كل هذه الأعوام لم يعد الضوء يستطيع الدخول هنا دون تحرج .. إنه يعامل كغريب غير مرغوب فيه ..

ولكنى كنت قادرًا على رؤية الجدران .. أستطيع رؤيتها ورؤية تلك العلامة الغريبة التى تبدو كأنما رسمت بالدم .. رمز غريب لايمكن تقليده بحروف المطبعة ، لكنه إلى حد ما قريب من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#) .. أنا لم أضل السبيل إذن ..

لايوجد طابق علوى .. إنما هناك ممران .. واحد يقود إلى اليمين وواحد إلى اليسار .. بالطبع لأختار الممر الأيمن كبداية .. الآن صار الظلام أكثر حدة ،

وللمرة الأولى خطر لى أنه من الحكمة أن أعود وأن أجد ضوءًا .. هذه مغامرة مشكوك فيها وبعد دقائق ستكون لا جدوى منها ..

كنت أتبين ما يشبه قاعة واسعة خالية من الأثاث تقريبًا .. لكن كانت هناك مائدة ضخمة فى وسطها .. ذات المائدة التى كنت أخشى أن أراها .. وكانت هناك نوافذ مهشمة ينساب منها ضوء النهار الذى صار الآن مزرقًا .. كلا ليس مزرقًا بالضبط .. إنه كلون (الإكليبيس) فى جانب النجوم الذى سأراه يومًا ما .. ألم أحك لكم أسطورة جانب النجوم بعد ؟ نعم ؟ إذن ذكرونى بذلك لو ظللنا أحياء ..

قررت أن أستدير وأعود ..

لكن صوتًا ما حازمًا جاء من مكان ما فى الظلمة ..

وقال لى ......

* * *

- « أنت أيها القادم .. لن تعود ! »

والتفت (عزت) المذعور إلى الصبى الذى راح يهتز أمامًا وخلفًا ، وعيناه جاحظتان .. بالأحرى لم يكن يتخيل أن عينى البشر قادرتان على كل هذا الجحوظ ..

- « أنت أيها القادم .. لن تعود ! »

ومع الجحوظ بدأ الشىء الذى لابد أن يحدث .. الزبد يتفجر من شدق الغلام .. لهذا كان القدماء يخافون مرض الصرع ويعتبرونه مسًا شيطانيًا .. لكن هذه لم تكن نوبة صرع لأن (عزت) رآها من قبل ..

- « اسمع يابنى .. هل أنت بخير ؟ »

وكان أشد ما أثار هلعه هو الصوت الناضج الضاغط على الحروف ، والذى يتكلم به الصبى .. عبارة معقدة جدًا يصعب أن نسمعها من طفل .. كأنها كلمات الكهان فى كتاب الموتى ..

من هو القادم ؟ ولماذا لن يعود ؟

راح (عزت) يصفع الصبى صفعات رفيقة على

خديه ، وهو يبسمل ويحوقل ، وتناول إناء يحوى الماء الذى يرطب به الصلصال ، وقذف بما فيه فى وجه الصبى عله يتحسن .. لكن النوبة ازدادت سوءًا ..

- « أنت أيها القادم .. لن تعود ! »

- « الله يخرب بيتك يا (رفعت إسماعيل) ! »

هذا العجوز لن يكف أبدًا عن إثارة هلعك .. كل ما ينتمى إليه أو يخصه مخيف مفزع .. أو غريب لايمكن فهمه .. حتى فى الليلة التى يطلب منك أن تعنى بطفل ، يتضح أن هذا الطفل ممن يسيل الزبد من أشداقهم ، ويقولون كلمات مخيفة بصوت غير صوتهم ..

سأغادر هذه البناية .. سأغادرها .. سيكون هذا أول شىء أقوم به غدًا ، وإن لم أجد مسكنًا فلسوف أقتل هذا الشىء المشئوم الأصلع ..

هكذا راح (عزت) يصب وبال غيظه علىّ ، وينظر فى ذعر إلى هذا المشهد غير المعتاد ..

إن ما يفكر فيه الآن هو شىء واحد ..

* * *

لابد من القرار .. حالاً ..

لكن الصوت الذى تكلم إلىّ والذى عرفت الآن أنه آت من حيث المائدة ، تكلم من جديد فقال :

- « لاتفكر فى هذا أيها القادم .. إن من يأت لن يعود .. »

ونظرت إلى الوراء لأجد أن فتحة الممر التى جئت منها لم تعد هناك .. لقد صار جدارًا مصمتًا مسدودًا .. حمدًا لله ! هذا يسرنى .. معنى هذا أن كل ما أمر به هلوسة بصرية وسمعية ..

- « أنت لاتهذى أيها القادم .. قلبك يعرف هذا وإن كان عقلك يأباه .. ألا فاتبع قلبك وتعلم منه .. »

نظرت فى بطء وتوجس إلى المائدة التى كانت مسربلة بالظلام .. الآن أرى تفاصيلها فى الضوء الأزرق الواهن القادم من مكان ما ..

- « تعال واجلس مع شياطين (بيموك) .. »

لم يبد لى الاسم محببًا .. لكنى وجدت نفسى أتقدم كالمنومين مغناطيسيًا لأقف فى دائرة الضوء الأزرق على بعد خطوات من المائدة المغبرة ..

نسيت هنا أن أقول إن الكلام لم يكن بالعربية ولا الإنجليزية ولا لية لغة أعرفها .. لكنه برغم هذا كان مفهومًا تمامًا لى كأنما لأننى جهاز ترجمتها الخاص ..

الآن أصف لكم الجالسين على المائدة ..

* * *



١٠ ـ كراكوس والأعزاء الآخرون ..

كانوا سبعة .. وقد احتشدوا فيما يشبه مؤتمرًا صغيرًا حميمًا .. لكنهم لم يكونوا مثلنا .. للدقة أقول إن خمسة منهم لم يكونوا مثلنا .. كانوا مومياوات متحللة برزت عظامها ، وإن احتفظت بوضع الجلوس ، وقد تكفلت الديدان مع نسيج العناكب بجعل المشهد لا يطاق ولا يوصف .. رائحة ؟ لا .. لم أشم رائحة ما ، وعلى كل حال ليس أنفى بأفضل الأنوف فى هذا العالم ..

أما الاثنان الآخران فكانا أقرب إلى شيخين مهدمين يرتديان أسمالاً بالية .. الحق أقول إن طول أظفار الواحد منهما كان مبالغًا فيه بعض الشيء ، وإن أحدهما كانت له بدل العين اليسرى فجوة خالية سوداء .. الخلاصة لم يكونا فى حالة أفضل بكثير من الجثث الجالسة حولهما ، وكانت أنسجة العناكب تحيط بهما مما يدل على أنهما كسولان إلى حد ما ..

هنا فقط بدا أن قلبى لم يعد يتحمل أكثر .. وساد ظلام دامس ..

* * *

ـ « انهض أيها الثانى .. انهض !! »

صرخ الصبى وراح يركل ذات اليمين وذات اليسار ، فهوى حذاؤه على شفة (عزت) ليمزقها .. لكن (عزت) امتص الدم ، وراح يحاول منع هذا التعس من إيذاء نفسه .. تبًا لك يا (رفعت إسماعيل) يا عصا المكنسة المريضة .. مفاجآت العجوز الشائقة لا تنتهى هذه الليلة .. كان شعر الصبى يغطى وجهه بالكامل الآن فلم تعد عيناه ظاهرتين لحسن الحظ ، لكنه كان يتلوى جاهدًا من أجل الإفلات .. لماذا ولأين ؟ لا أحد يدرى ..

ـ « انهض أيها الثانى .. انهض !! »

وهذه المرة طار حذاء الصبى ليحطم المزهرية ، ثم بدأ يرتجف بتلك الرجفة الكهربية الجلفانية التى



لكن (عزت) [illegible]
[illegible]

يعرفها أطباء الأعصاب جيدًا ، ويشيب لهولها من لم يروها من قبل ..

ـ « فاليوم ! أنا بحاجة للفاليوم ! »

لم يكن (عزت) ذا خبرة طبية ، لكنه كان يعرف ما يكفى .. الفاليوم يهدئ النوبةَ الصرعيـة ، وهو يملك أمبولاً منه لأنه يصاب بتشنجات أحيانًا .. ترك الصبى يركل ويرغى ويزبد ، وهرع إلى الصيدلية فبحث عن محقن .. ثم كسر الأمبول بأسنانه فابتلع بعض الزجاج المهشم ، وامتص بالمحقن ما تبقى من السائل .. إن ما بقى لن يزيد على نصف الأمبول ، وهو فى الغالب جرعة مناسبة لطفل ..

هرع جريًا إلى الصبى وبرك فوقه ـ بالمعنى الحرفى للكلمة ـ وأفرغ المحقن فى فخذه ..

النبأ السار الذى لم يعرفه (عزت) أن الحقن بالعضل لا يؤدى عمله بنفس سرعة الوريد ، وهكذا

تلقى عدة لكمات شنيعة ، وعضه (رامى) فى ساعده عضة أسالت الدم ..

وأخيرًا همدت حركة الصبى قليلاً .. ثم ..

* * *

ثم أفقت أنا ..

كانوا جالسين حيث هم .. بينما كنت أنا على الأرض وسط ما بدا لى حين نهضت كنجمة خماسية .. نعم هى كذلك .. مرسومة بالطبشور وفى مركزها بالضبط ذلك الرمز الذى رأيته مرارًا .. فهمت .. لقد وقفت كالأحمق منذ البداية وسط دائرتهم ، وفقدت وعيى فوقها .. ربما هذا هو السبب الذى جعلهم يتجلون لى فى أول زيارة .. ربما أن محظوظين آخرين دخلوا وخرجوا دون أن يروا هذا الاجتماع الرهيب ..

قال ذو الصوت الجهورى :

ـ « فاعلم أيها الفانى القادم من أرض الفانين ، أنك فى حضرة شياطين (بيموك) .. (كراكوس)

وإخوانه ينتظرون هنا من دهور .. وأنت لست آخر القادمين ، ولا أنت أولهم .. »

وقال الثانى :

ـ « إنه فان كما يكون الفناء ، ولا يصلح لشىء .. فلنتركه يا (كراكوس) .. »

ـ « ليس بعد أن عرف ما عرف .. »

ـ « ليس من علم كمن لم يعلم .. »

استجمعت صوتى أخيرًا وقلت وأنا أقنع نفسى إننى أهلوس لا أكثر :

ـ « من أنتم ؟ »

ـ « أنت تعلم .. فى قلبك تعلم .. »

وقال الثالث :

ـ « أنت رأيت جزءًا من جانب النجوم أيها الفانى .. قلبك يقول إنك رأيت وعرفت .. تعلم أن هناك ثغرات عدة تقود إلى عالمكم .. هذا البيت يكمن فوق ثغرة

من تلك الثغرات ، وقد جئنا جميعًا منها يومًا حين كان جدودك فى بطون أمهاتهم ، لكننا لم نستطع العودة .. »

لم أكن قد زرت جانب النجوم الرهيب فى ذلك الوقت .. سأحكى لكم القصة بالتفصيل فى (أسطورة جانب النجوم) .. لكنى كنت بالفعل قد وقفت على الجانب الآخر منه فى ذلك اليوم الرهيب ، بينما صديقى الرومانى (جوستاف) يعوى كالذئاب من هول ما رأى .. جانب نجوم (رومانيا) الذى يعبر منه مصاصو الدماء والمذءوبون إلى عالمنا التعس ..

هؤلاء جاءوا من جانب النجوم ، ومن حظنا التعس أن المرحوم (أبو العلا) لم يجد بقعة فى الأرض يبنى عليها تلك الفيلا إلا فوق الفتحة .. الباب السرى الذى يقود إلى جانب النجوم .. ربما المنفذ الوحيد فى مصر كلها ..

قلت لهم وأنا أشعر بسخف موقفى إذ أجادل هذه الكائنات المريعة :

- « والصبى ؟ ما ذنب الصبى كى تمسوه ؟ »

قال (كراكوس) بصوته المعدنى الأجش الرتيب :

- « لقد جاء بكامل إرادته إلينا ، وكان صبيًا حار الدماء بينما نحن نتلاشى كما ترى .. »

- « لا أفهم .. »

- « ولن تفهم أيها الفانى أبدًا .. إن حياتنا طويلة طويلة تبدو لكم أبدًا كاملاً ، لكنها تنتهى برغم كل شىء .. وعلينا أن نجد دمًا شابًا نجرى فيه قبل أن نتلاشى .. »

ومد يده المخلبية دون رفق وهز إحدى المومياوات الجالسة .. على الفور هوت هذه على الأرض بصوت كئيب وأردف :

- « لقد فقدنا بعضنا .. لكننا لن نفقد آخرين .. نحن هنا ننتظر .. ننتظر .. مئات السنين بالنسبة للفانين هى دقائق بالنسبة لنا .. ولن يطول الأمر قبل أن يتسلل طفل آخر إلى هذا البيت يحدوه فضول لا يرتوى .. »

ثم رفع نحوى وجهه بتلك الثغرة الشائهة فى موضع العين ، وقال :

ـ « .. الصبى يصلح ، وقد بدأت دماء (دراكون) تجرى فى عروقه .. لكنه يقاوم .. مازال يقاوم .. »

ـ « يقاوم ؟ كل هؤلاء القتلى الذين فتكت بهم عيناه وتقول إنه يقاوم ؟ »

ـ « ألم يرسم لكم شياطين ؟ إنه حاول أن يبلغكم الرسالة فلم تفهموا .. ولو فهمتم ما استطعتم نجدته .. إن الشر أقوى منه وهو يطلب الخلاص فلا يناله .. »

ـ « وماذا تريدون ؟ »

ـ « أن نستمر .. هذا هدفنا كما هو هدف الفانين جميعًا .. »

ـ « ولماذا البشر ؟ إن الحيوانات تؤدى نفس الوظيفة .. »

ـ « ومن تحسب تلك القطط السوداء بالخارج ؟ لقد

كانت منا يومًا ما ثم مسسناها .. لكن القطط محدودة القدرات لاتمنحنا مانريد .. أما الصبية فيصلحون لكل شىء .. »

* * *

كان ذلك حين فتح (رامى) عينيه ..

فى هذا الوقت نجد أن حالة (عزت) النفسية فى الحضيض ، وكان يتمنى أن ينام الصبى أكثر ، لكن الفاليوم لم يمنحه للأسف إلا عشر دقائق لسبب غير مفهوم ..

هنا سمع دقات عنيفة مختلطة برنين جرس تأتى من الخارج .. دقات على باب (رفعت) لابابه .. غريب هذا .. من يزور الكهل (رفعت) ويدق بهذا الحماس ؟

نهض (عزت) وفتح الباب ليلقى نظرة على البهو ، فوجد رجل لايعرفه .. رجلا غارقًا فى العرق لايبدو كلص أو شبح ، يواصل دق باب (رفعت) فى قلق ، فلما شعر بأن هناك من يفتح الباب خلفه استدار وقال مفسرًا :

ـ « لامؤاخذة .. هل الدكتور (رفعت .... (رفعت خليل) موجود عندك ؟ »

ـ « إنه بالخارج .. ماذا تريد ؟ »

ـ « إن أم الغلام معى .. أعنى الغلام الذى يقيم مع الدكتور .. هل أنت ؟ »

عاد (عزت) يفهم ما هنالك :

ـ « أم الغلام ؟ من أنت ؟ »

ـ « ومن أنت أولاً ؟ »

ـ « أعتقد أن الغلام الذى تتحدث عنه عندى أنا .. والآن من أنت ؟ »

جفف الرجل عرقه المتصبب ، وقال :

ـ « أنا سائق سيارة أجرة لا أكثر ولا أقل .. أولاد الحلال طلبوا منى أن أوصل الأم من المستشفى إلى حيث تريد .. وقد طلبت أن تأتى هنا أولاً لترى ابنها .. لكن من الواضح أن .... »

لم يكن (عزت) يفهم حرفاً من الموضوع ، لكن سره أن أم الصبى فى القصة .. [illegible] الخلاص قريب ..

ـ « وأين الأم ؟ »

ـ « إنها فى السيارة تنتظر . [illegible] يبدو أنها أجرت جراحة فى وقت قريب . [illegible] تتحمل البقاء فى المستشفى [illegible] . لا أحد يحب المستشفى . [illegible] تجنب [illegible]

قال (عزت) فى حذر :

ـ « اذهب وقل لها [illegible] إلا لها .. »

ـ « لكنها لا تستطيع أن ... »

ـ « وأنا لن أعطى الغلام [illegible]

بدت الحيرة على الرجل ، لكنه [illegible] المصرية العنيدة [illegible] وكان يشعر أن المرأة [illegible]

زبونين عاديين .. لهذا هز رأسه ثم هبط فى الدرج ، وبعد عشر دقائق وجد (عزت) أمامه إمرأة مريضة شاحبة كأنها كانت بين الأموات منذ ساعتين ، وفى أسوأ حال ممكن .. كانت تستند إلى ذراع السائق ، وتصعد فى الدرج بصعوبة بالغة .. شعر (عزت) أنه متوحش قاس ، لكنه لم يكن يعرف مدى سوء حالة المرأة ..

هرع يساعدها على دخول شقته ، فى حين تساءلت هى فى لهفة واهنة :

ـ « أين (رفعت) ؟ لماذا لم يظل بقرب (رامى) ؟»

قال لها وهو يمنحها مقعدًا :

ـ « أنا جار (رفعت) لكنى لا أعرف أين هو .. أحسبه يفعل شيئًا ما بخصوص (رامى) بالذات .. »

لكنها لم تجلس .. صاحت فى لهفة :

ـ « (رامى) ! أين هو ؟ »

ـ « بخير .. إنه بالداخـ .... »

ولم تنتظر الأم دعوة .. لقد هرعت إلى الداخل حيث كان (رامى) راقدًا على الأريكة منهكًا من حالة (الترانس) التى كان فيها .. بعد ثوان كان فى حضنها وهى تعتصره عصرًا ، وتلثم العرق على جبينه حبة حبة .. وقف (عزت) على الباب فى غباء ينتظر ما سيقال ، أما السائق فراح يهز رأسه متصعبًا .. ياسلاااام ! قلب الأم !

أخيرًا انتهى هذا السيرك المقام فى شقة (عزت) برغم إرادته ، وأخرجت (هناء) جنيهًا من حقيبتها ـ له رائحة مطهرات المستشفى وعبقها ـ نقدته السائق (كانت هذه ثروة فى تلك الأيام) .. قال وهو يدسه فى جيبه :

ـ « لا أريد شيئًا يامدام .. يكفينا الثواب .. »

ومن جديد هز رأسه متصعبًا وهو ينصرف :

ـ « ياسلاااااام ! قلب الأم ! »

هنا فقط تهاوت (هناء) على الأريكة جوار ابنها ، وراحت تلهث ، ثم سألت (عزت) :

- « ما معنى هذا ؟ ماذا أصاب ابنى ؟ »

تلعثم (عزت) كعادته كلما هوجم أو شم بعض الاتهام فى الكلام ، وقال فى همس :

- « هو الذى بدأ يصرخ ، ويتكلم بصوت غريب و.... أراهن أنه مصاب بالصرع ! »

لم تبد مندهشة أو مستنكرة .. فقط قالت فى غموض :

- « لقد شعر قلبى بهذا فلم أطق صبرًا على البقاء فى المستشفى أكثر .. كنت أعرف أن (رامى) فى ورطة .. هل تصدق هذا ؟ »

نظر لها (عزت) غير فاهم ، فقالت مفسرة :

- « قلب الأم كما قال السابق .. لقد ظل هذا الصغير فى أحشائى تسعة أشهر جوار قلبى .. بل إن جزءًا من روحى موجود فى روحه .. ليس من الشاذ أو الغريب أن أشعر بكل ما يشعر به وأحدس الباقى .. إن (رامى) فى ورطة ، أما (رفعت) ففى كارثة وإننى لأسأل الله أن يتولاه برعايته .. »

- « لا تقلقى على (رفعت) .. إن حياته كلها كارثة طويلة لا تنتهى .. »

كانت يداها ترتجفان حين مدتهما إلى (عزت) .. وقالت فى وهن :

- « أريد مذياعًا هنا .. لابد من قرآن .. إن فى حقيبتى مصحفًا .. »

وأخرجت المصحف من الحقيبة وأخذت شهيقًا عميقًا ، ثم حانت منها التفاتة إلى التمثال المخيف للفيل الذى يمشى على قدميه الخلفيتين .. فقالت مستنكرة :

- « ما هذا ؟ »

- « هذا ؟ هذا (بيموث) .. إنه شىء ... شيطان ! »

قالها كالمذنب - رغم أن ابنها هو من صنعه - فصاحت مشمئزة :

- « تخلص منه بحق الله .. تخلص منه ! »

مد (عزت) يده - وقد احمرت أذناه - واعتصر التمثال

الصلصالى كى يحوله إلى عجين معدوم الملامح .. وهرع كالملسوع يحضر المذياع .. ومن جبين (رامى) دنت (هناء) ولثمته فى حنان ، ومن جديد عانقت الطفل بقوة وهمست :

ـ « ماما هنا يا حبيبى .. لن يأخذك شر منى .. سيرون أن حبى لك أقوى منهم جميعًا .. إن الله معى بينما هم .. هم شياطين .. »

وبدأت تتلو بصوت واهن يرتجف إرهاقًا وتوترًا ..

* * *



١١ـ الفرار..

ومن جديد رأيت فتحة الممر قد ظهرت أمامى كأنما لم تكن .. أتراهم يطلقون سراحى ؟

مشيت إلى تلك الفتحة دون أن أنظر إلى الوراء .. لم يعترض لحد ولم يتكلم أحد .. الآن لمشى فى مدخل الفيلا التى غمرها الظلام .. لاداعى للإسراع .. إن (كراكوس) وإخوته يستطيعون القضاء على فى أية لحظة لو أرادوا .. هنا أو هناك .. ترى هل آمل فى الخروج من هنا حيًّا ؟

واصلت المشى جاهدًا نحو ما تعتقد حواسى أنه باب الفيلا .. لكن لم يكن هذا هو الباب .. كان ممرًا طويلاً مظلمًا .. مشيت فيه بضع ثوان لأجد نفسى من جديد أمام المائدة التى يجلس عليها (كراكوس) وأخوته !

مستحيل هذا ! أنا متأكد من حاسة الاتجاهات عندى .. الفيلا ليست بهذا التعقيد على كل حال .. ليست متاهة المينوتور وليست أنفاق قصر أسكتلندى ..

ودون أن أقول كلمة أو ألقي تحية ، مررت بالجالسين فى جلستهم التى دامت قرونا ، واتخذت الممر ذاته من جديد .. هذه المرة لامجال للخطأ .. ببساطة لأنه لا اتجاهات أخرى .. الممر ثم الفيلا ..

كان ما توقعته صحيحًا للأسف ..

إننى أمشى فى مسار وهمى لاوجود له يقود دائمًا إلى النقطة ذاتها ، ومن الواضح أننى سأمشى فيه حتى أموت .. ماذا تتوقع من شياطين جاءت من جانب النجوم لتدمر حياتنا ؟

ـ « أنت أيها القادم .. لن تعود ! »

كانت هذه أول كلمات حيونى بها ، ومن الواضح أننى ملتزم حرفيًا بها .. لاسبيل لمغادرة قاعة الاجتماعات الرهيبة هذه ..

* * *

لهذا يشبه رمزهم شكل المتاهة .. ألم أقل لك إنه مزيج من هذه العلامة (●) وهذه العلامة (#) ؟

* * *

الآن (رامى) صامت تمامًا .. لكن قطرات من الدم تسيل من أنفه ..

توقع (عزت) أن تصاب الأم بلوثة عقلية ، لكنها تأملت المشهد ومدت يدها النحيلة تمسح قطرات الدم ، وهمست :

ـ « إنه يقاوم .. يعرف أننى معه وأننى أفهم »

وواصلت التلاوة وهى ترمق وجهه من حين لآخر .. الآن يزداد الدم ليتحول إلى خيط طويل يتدلى من أنف الطفل .. وبدأت حركات قلقة غير معهودة ترجف فى ساقيه وذراعيه ..

هتف (عزت) مذعورًا :

ـ « هل لن يقتله هذا ؟ »



أطلق أحد الجالسين حول المائدة أنينا خافتًا ثم سقط على الأرض من فوق مقعده ..

ـ « لندعو الله أن يستطيع المقاومة .. إنه يحاول طرد تلك الذات التى سيطرت عليه كل هذا الزمن .. كان بحاجة إلى عونى ، وقد خففت إليه .. »

ثم بدأ الدم ينبجس من إبهام الصبى فى مكان حذائه الذى طار .. دم يحتشد تحت الظفر ثم يحتشد ليسقط على الأرض .. لم يفهم أحدهما مغزى هذا ، ولو كنتُ معهما لعرفت على الفور أن هذه علامة مغادرة الجسد .. إنها العلامة التى يعرفون بها أن الجسد صار نظيفا ..

* * *

أطلق أحد الجالسين حول المائدة أنينًا خافتًا ثم سقط على الأرض من فوق مقعده .. صوت السقطة أخبرنى أن المومياء تهشمت تمامًا ..

لا أدرى معنى هذا ، لكننى شعرت أن الأمور تتحسن بشكل ما .. لم ينهض أحد ليراه ولم يتحرك (كراكوس) كأن الأمر لا يعنيه ، لكنه قال بصوته الغليظ :

- « قد فقد (دراكون) الصبى .. »

وكانما حدثت ثغرة ما فى تلك المصيدة الجهنمية التى وضعونى فيها ، وجدت أننى فى (اللوبى) من جديد ، لكن باب الفيلا كان أمامى هذه المرة ، وكان مواربًا كما تركته بالضبط ..

هرعت أخرج منه وأنا أتعثر فى الأعشاب المتشابكة ، وألطم أكثر من علبة صدئة منسية من دهور .. الحق أن الظلام صار دامسًا بحق ..

لن أجد الباب وسط هذا الدغل .. لن أقدر .. لو صرخت لوجدونى بسرعة ولن ينقذنى أحد من البشر ..

إنهم يبحثون عنى .. أسمع حركتهم فى داخل الفيلا ، وأسمع صوت الغصون المتشابكة تنزاح هنا وهناك .. يبدو أنهم فقدوا تماسكهم للحظة لن تطول ، وفى نيتهم ألا يسمحوا لى بالخروج من هنا ..

هنا وجدت أمامى السيارة التاونس العتيقة الواقفة دون عجلات ولانوافذ وسط هذه الأحراش .. فى الظلام تبدو ككابوس أسود حقيقى .. بالداخل كانت قطتان بيضاوان ترمقانى بتلك العيون الماسية الوجلة .. وهنا تذكرت شيئًا ..

* * *

- « ومن تحسب تلك القطط السوداء بالخارج ؟ لقد كانت منا يومًا ما ثم مسسناها .. لكن القطط محدودة القدرات لا تمنحنا ما نريد .. أما الصبية فيصلحون لكل شىء .. »

* * *

هذه القطط بيضاء لاسوداء .. هل أجرؤ على الاعتقاد بأن (كراكوس) ومن معه لايستطيعون دخول هذه العربة ؟ هل يمكن أن تكون حصنًا آمنًا لى ؟

لم يكن مجال للتردد ، فدلفت إلى السيارة وأجفلت القطتان ففرتا طبعًا ، بينما جذبت الباب لأغلقه على نفسى .. وبحثت عن وضع يصلح للجلوس بالطبع دون جدوى فى سيارة ترجع للعصر الحجرى ..

أمامى الحديقة المظلمة لا أسمع فيها إلا مواء القطط السوداء .. ولا أرى إلا سجادة سوداء كثيفة تلتصق بالنوافذ .. سأنتظر لأرى .. سأنتظر لأرى ..

وبعد ساعتين ـ كما بدا لى ـ بدأت أشعر أن الأمر آمن بحق ..

لقد رأيت أهوالاً عديدة فى تلك الليلة وأنا جالس متكور على نفسى فى تلك السيارة العتيقة .. لكننى لن أحكيها لأنك لن تصدقنى أولاً .. ولأن جزءًا من هذه الأهوال اختلط بالكوابيس التى كنت أراها حين أغيب عن الوجود .. الخط الفاصل بين الحقيقة والحلم قد تلاشى فلم أعد أعرف أين ولا متى ..

لكن الحقيقة التى لايمكن إنكارها هى أن الأهوال كانت تدنو من السيارة وتدور حولها ، ثم تبتعد .. كأن الموج يضرب الصخور ثم يرحل عنها ..

ولا أدرى كيف حدثت المعجزة ولاكيف جاء النهار ..

لكنى كنت مرهقًا جدًا بحيث ظللت حيث أنا حتى منتصف اليوم ..

* * *



الخـاتمة

قالت (هنـاء) وهى تحتضن ابنهـا ، وقد نامت ـ أخيرًا ـ فى الفراش بدارها :

ـ « لايهمنى ما رأيت .. المهم أن (رامى) بخير أخيرًا .. »

قلت لها وأنا ألتهم طعام الإفطار الذى اشتريته من مطعم قريب :

ـ « المشكلة هى أن (كراكوس) هـذا والآخرين أحياء والفجوة موجودة .. أعرف شخصًا متحمسًا كـان سيقوم بتدمير تلك الفيلا فى المـاضى ، لكنـه اليوم كهل واهن لايقدر على شىء كهذا .. »

قالت :

ـ « سأحاول إقناع زوجى بالكلام مع مسئولى الحى .. لن يذكر كلمـة عن (كراكوس) هذا ، لكنـه سيجد حـلاً إداريًا مـا .. وعلى كل حـال ليس تدمـير هـؤلاء سهلاً .. »

ونظرت إلى (رامى) جيدًا .. بالتأكيد اختفت تلك النظرة المخيفـة من عينيه .. ولـن أندهش لو اتضح أن بصمات أصبعه هى نفس البصمات القديمة ..

ونهضت وقلت لـ (هنـاء) وأنـا أستعد لمغـادرة الفيلا :

ـ « سأعود لدارى .. ونصيحتى الوحيدة لك هى أن تقللى من تمسك (رامى) المرضى بك .. لقد أنقذتـه هذه العلاقة الروحية الحميمة مرة ، لكنها لن تنقذه فى المستقبل حين يغدو رجلاً مسئولاً .. يجب أن تنجبى طفلاً آخر ! لا أدرى كيف فهذه مشكلتك أنت .. إن الطريقـة المثلى لتربيـة الطفل الأول هى أن تنجبى الثانى ! »

قلبت يدها لأعلى وابتسمت وقالت : يسمع منك ربنا ..

وهنا دق جرس الهاتف برنين طويل لا يكل .. فقالت باسمة :

ـ « لعله (منصور) .. »

لم أنتظر حتى أعرف .. لو كان هذا (منصور) زوجها فقد حان الوقت كى يتصل .. يترك الآخرين يتحملون مسئولياته ثم يتصل ليقول إنه يفتقدهم ...

ووقفت فى شمس العصر أرمق الشارع .. كان هادئًا بالطبع لأن الطقس كان حارًا .. لكنى رأيت سورًا على الجهة المقابلة من الشارع ، وكان هناك طفلان يقفان هناك يتسليان بالرسم بالطبشور عليه ..

لم أستطع أن أبعد عينى عن الرسم الذى رسمته يداهما عشرات المرات على الجدار .. هل تراه ؟ إنه مزيج من هذه العلامة (*) وهذه العلامة (#) ..

دنوت أكثر لأرى فسمعت أحدهما يقول للآخر :

ـ « هلم يا (أكرم) .. لقد تأخرنا !! »

وهنا تصلب الشعر على ساعدى ..

(أكرم) ؟ وطبعًا الآخر يدعى (سامح) .. لقد نسينا كل شىء عن الطفلين اللذين كانا مع (رامى) فى الفيلا واللذين تأخرا أكثر من ساعة قبل العودة .. فلماذا تأخرا ؟

رحت أرمقهما فى حيرة من مسافة قريبة ، ويبدو أن أحدهما لاحظ ذلك ، فاستدار نحوى ونظر بكراهية .. كراهية جعلت الدم يتجمد فى عروقى وقلبى يكاد يتوقف .. وعبرت الطريق مسرعًا لأعود إلى سيارتى ..

لم يكن (دراكون) هو الوحيد الذى حاول وفشل .. هناك آخران حاولا .. وفى الغالب نجحا ..

ثلاثة لثلاثة أطفال .. هذا عادل .. هذا منطقى ..

وأدرت المحرك وعيناى لا تفارقان الصبيين اللذين يرسمان على الجدران من بعيد ، وهنا دنا منى عم (بسطويسى) البواب العجوز ووقف متأدبًا ينتظر حتى أرحل .. فقط قال وهو يلاحظ اتجاه عينى :

- « إن صبية هذه الأيام شياطين لابد من يد من حديد للتعامل معهم .. »

ثم تذكر فأضاف :

- « ما عدا البك الصغير طبعًا .. »

* * *

فى القصة القادمة كان علىّ أن أعرف سبب اهتمام كل هؤلاء القوم بهذا العقار بالذات ؟ لماذا غدا المنزل رقم (5) فجأة أهم منزل فى الدقى ؟

ربما أهم منزل فى القطر .. وربما أهم منزل فى العالم ..

كالعادة كان هناك سر مخيف ..

ولكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة طفل آخر

منذ عاد (رامى) الصغير من تلك المواجهة المؤسفة لم يعد كما كان .. لقد صارت له نظرات شريرة غريبة .. صارت عيناه لاتنغلقان فى أثناء النوم .. صار يرسم أشكالاً كئيبة مريعة لا يمكن أن يرسمها طفل .. صارت بصماته تثير ذهول أى خبير بصمات يفحصها .. أحياناً أحسبه لم يعد هو .. كأنه طفل آخر يشبهه .. أحياناً أعتقد أنه ليس طفلاً على الإطلاق .. فما رأيك فى هذا كله يادكتور (رفعت) ؟..



د. أحمد خالد توفيق

الثمن ... مصر ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم :

أسطورة المنزل رقم (5)